

أحمد أمين

بقلمه وقلم أصدقائه

بمناسبة الذكرى الأولى لوفاته

٣٠ مايو ١٩٥٥

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٥



قعيد العالم الإسلامى المغفور له الدكتور أحمد أمين
أول أكتوبر سنة ١٨٨٦ — ٣٠ مايو سنة ١٩٥٤

فهرس (*)

الصفحة

صفحة حياتى :	المرحوم الدكتور أحمد أمين	٥
صورة من حياتى ... :	» » » »	٧
أحمد أمين ... المربى :	الدكتور إبراهيم بيومى مذكور	١١
أحمد أمين ... الأديب :	الأستاذ أحمد حسن الزيات	١٥
أحمد أمين ... الصديق :	الدكتور أحمد زكى	١٩
أحمد أمين ... الفيلسوف :	» أحمد فؤاد الالهوانى	٢٧
أحمد أمين ... الوالد :	الأستاذ جلال أحمد أمين	٣٧
أحمد أمين ... القاضى :	» حسن جلال	٤٣
طيف الأمين (قصيدة) :	الدكتور زكى المحاسنى	٤٨
أحمد أمين ... الجامعى :	» شوقى ضيف	٥١
أحمد أمين ... العالم :	» طه حسين	٥٧
أحمد أمين ... المجاهد :	» عبد الرزاق أحمد السنهورى	٦٥
ذكريات عن أحمد أمين :	» عبد الوهاب عزام	٧٧
أحمد أمين... ناشر الثقافة :	الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف	٨٥
شخصية أحمد أمين :	» محمد فريد أبو حديد	٩٠
صورة أحمد أمين :	» محمود تيمور	٩٩
أحمد أمين الكاتب :	الأمير مصطفى الشهابى	١٠٥
لحات من أحمد أمين :	السيدة وداد سكا كينى	١٠٨

والدنا العزيز

وقفتَ حياتك على تربيتنا ، وتهذيب الجيل في أشخاصنا ،
ونشرتَ على الناس « إلى ولدى » نموذجاً في التثقيف
يحتذى مثاله .

عشتَ حياتك للفكر الخالص ، توجه أبناء الأمة نحو
الخير والعلم ، فكنتَ مفكر الشرق وحكيم الإسلام .
ولن نستطيع — نحن أبناءك — أن نفي بفضلك ،
فهذه أقلام أصدقائك — أعلام مصر والبلاد العربية — تنوب
عنا بالحديث عنك بعد وفاتك بعام ، ولهم منا على كلماتهم جزيل
الثناء ، وإنها لكلمات تعبر عن الود والصدق والوفاء .

أبناءؤك

صَفِيَّة حَيَاتِي

[طلب مجمع اللغة العربية من أحمد أمين نبذة عن حياته تحفظ في ملفات المجمع ؛ فكتب بقله الكلمة الموجزة التي ننشرها هنا بتمامها . وهذه الكلمة كتبها عام ١٩٥٠ وقد جرت العادة بأن يكتب العضو عن نفسه بصفة المجهول] .

ولد بالقاهرة في أول أكتوبر سنة ١٨٨٦ وابتدأ دراسته بكتاتيب مختلفة بمدرسة والده عباس الأول الابتدائية (المسماة الآن بنبا قادن) ثم الأزهر ثم مدرسة القضاء الشرعي فنال العالمية سنة ١٩١١ .

عين مدرسا بمدرسة القضاء الشرعي في نفس السنة إلى سنة ١٩١٣ ، فعين قاضيا في محكمة أسيوط الشرعية ومنها انتدب لمحكمة الواحات الخارجة وبقى بها ثلاثة أشهر . ثم عاد مدرسا بمدرسة القضاء إلى سنة ١٩٢١ . فعين قاضيا في محكمة طنطا وانتدب لمحكمة قويسنا الجزئية ، ثم انتقل إلى مصر وانتدب لمحكمة طوخ الجزئية ، ثم انتدب لمحكمة الأزبكية وظل بها إلى سنة ١٩٢٦ ، حيث عين مدرسا في كلية الآداب بجامعة فؤاد ، فأستاذًا مساعدا ، فأستاذًا ، فعميدا سنة ١٩٣٩ فأستاذًا إلى أن أحيل على المعاش في أول أكتوبر سنة ١٩٤٦ وفي أول يناير سنة ١٩٤٧ عين مديرا للإدارة الثقافية بالجامعة العربية إلى اليوم .

نال البكوية سنة ١٩٤٠ وفي نفس السنة عين عضوا بالمجمع اللغوي ، وفي سنة ١٩٤٨ نال الدكتوراه الفخرية وجائزة فؤاد الأول وفي أثناء أستاذه بكنية الآداب اختير نحو عشر سنوات عضوا : لمجلس جامعة فؤاد الأول وفي سنة ١٩٤٥ مديرا لإدارة الثقافة بوزارة المعارف مع عمله في الكلية .

وفي سنة ١٩١٤ أسس لجنة التأليف والترجمة والنشر واختير رئيسا لها من يوم تأسيسها إلى يوم وفاته . وفي سنة ١٩٤٥ حينما كان مديرا للإدارة الثقافية بوزارة

المعارف فكر في إنشاء الجامعة الشعبية «أسست» ، وكوّن لها مجلس إدارة كان رئيسه بعد ذلك التاريخ .

واختير سنة ١٩٣٩ عضواً للمجلس الأعلى لدار الكتب ، وفي سنة ١٩٤٥ عضواً للمجلس الأعلى للمعلمين ، وفي سنة ١٩٤٩ اختير عضواً بمجلس كلية دار العلوم وكذلك عين أستاذاً غير متفرغ في كلية الآداب وعضواً في مجلس كليتها .
وابتداً اتصاله بالصحافة سنة ١٩٣٤ في الرسالة والثقافة (وكان مديراً لها) ثم مجلات دار الهلال . وكذلك بدأ اتصاله بالإذاعة المصرية وإذاعات الشرق الأدنى ولندن العربية .

وفي سنة ١٩١٨ ترجم كتاب مبادئ الفلسفة . وفي سنة ١٩٢٢ ألف كتاب الأخلاق . ثم فجر الإسلام وضحى الإسلام (٣ أجزاء) وظهر الإسلام (٤ أجزاء) . وله قصة الفلسفة اليونانية وقصة الفلسفة الحديثة مع الأستاذ زكي نجيب محمود ، واشترك في كتب مدرسية مثل المنتخب والمفصل ، ثم اشترك في نشر كتاب الإمتاع والمؤانسة والعقد الفريد ، ثم ألف كتاب قصة الأدب في العالم مع الدكتور زكي نجيب محمود في ٤ أجزاء ثم كتاب فيض الخاطر وهو مقالات في ٩ أجزاء ، ثم كتاب زعماء الإصلاح في العصر الحديث وحياتى وقاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية وكتاب الشرق والغرب .

وتوفى يوم الأحد ٢٧ رمضان سنة ١٣٧٣ الموافق ٣٠ مايو سنة ١٩٥٤ .
وأطلق اسم أحمد أمين على أحد شوارع مصر الجديدة ، وخصصت جائزة باسمه تمنح كل عام لأول الحائزين على ليسانس الآداب من قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة . وهذه الجائزة مجموعة كاملة من كتبه .

ومكتبة أحمد أمين الآن في إحدى قاعات المؤتمر الإسلامى تحمل اسمه وهى مفتوحة الأبواب لكل من يرغب فى الاطلاع عليها .



أحمد أمين مدرسا بمدرسة القضاء الشرعي سنة ١٩١٦

صورة من حياتي

[كتب أحمد أمين حين أخذت له الصورة المنشورة مع هذا ، في ظهرها ،
هذه الصفحة التي تعد صورة قلبية يعبر فيها عن نفسه بأوضح من الصورة الشمسية]

هذه صورتي أخذت في يوم الجمعة ٧ إبريل سنة ١٩١٦ وسني تسع وعشرون سنة وستة أشهر عقب عقد زواجي بأربعة أيام . وقد اتخذت الكتب شعاراً فوضع المصور بجانب الأيمن كتباً من عنده وكان بيدى اليسرى كتاب بالإنجليزية عنوانه « مبادئ الفلسفة » ، وكنت قد اشتغلت بتعريبه مع أحد إخواني وهو على وشك الانتهاء . وقد لاحظت في الصورة البساطة غاية الجهد ، فلم أعمل شيئاً إلا اختيار اللبس وهو اللباس الذي اخترته يوم عقد الزواج ، وربما كان من أكبر الأسباب الباعثة على التصوير اعتقادي أنني أنهيت شكلاً من أشكال الحياة ، وهو المعيشة الفردية ، وابتدأت نوعاً آخر من المعيشة ، وهو عيشة الزوجية ، له تأثير في النفس والجسم كبير ، وربما تبينت الفرق بين أثر المعيشتين إذا كان لي من الأجل متسع فصورت ما بعد الزواج ، ومن البواعث أيضاً علمي بأن السنة المتممة ثلاثين سنة تحتم حياة الصبا والفتوة ، وهي فاتحة حياة يغلب فيها عمل العقل والروية على أني — والأسف ملء الفؤاد — لم أنتفع بزمان الصبا كما أود ، فلم يجد المرح والنشاط ولا اللهو ولا الحب لقلبي منفذاً ، بل تشايخت قبل أوان الشيخوخة ، وهو ولا شك أثر التربية المنزلية فقد كانت تربية أساسها التخويف والإرهاب ، ولم أكن محوطاً بفرح وسرور في المنزل . وإني هذه السنة أحس بميل إلى الحركة وحب للنشاط على أثر درسي الإنجليزية على سيدة إنجليزية عجزت ، كانت تصلح من نفسي كما تصلح من لساني ، فكانت تخاطبني كثيراً بقولها « تذكر أنك شاب » وكانت تنتقد في الهدوء وسكينة الشيخ — وقد تغير كثير من آرائ وأخلاقي إلى خير ، ويرجع

ذلك إلى عوامل ، أهمها : تعلم اللغة الإنجليزية وما كان يدعو إليه من مخالطة انجليزيتين راقيتين خلقاً إحداها عجوز والأخرى فتاة متزوجة . وثانيها : دروس الأخلاق مع مخالطة ناظر مدرسة القضاء عاطف بك بركات . ومما أحس به أيضاً أننى الآن أكبر حرية فى الفكر ، كثير النقد ، لا أخرج من انتقاد بعض المسائل الفقهية وما يتبعها . وأكثر ميل إلى القراءة فى علمى الاجتماع والأخلاق مع ما أجد من الصعوبة لقرب عهدى بتعلم الإنجليزية ، فقد بدأت فى تعلمها فى يناير سنة ١٩١٤ ، فى نحو سنتين ونصف أتعلمها ، وأنا الآن مدرس بمدرسة القضاء مرتبى ١٣٢٠ قرشاً ، ولم أمل التدريس ولا أمل التدريس ولا زلت أفضله على القضاء . وأنا أرجو من الله أن يعيننى على القيام بعمل عظيم لأمتى من الجهة الخلقية والاجتماعية .

كتب فى ٢٠ يونيه سنة ١٩١٦ .

أحمد أمين

صورة من حياتي

هذه صورة من اخذت في يوم الجمعة ١٩١٦ سنة ١٢٣٦ هـ وسنن تسع وعشرون سنة وستة أشهر
عقب عقد زواجي بأربعة أيام وقد اتخذت لقبه شعاراً فوضع التصوير بجاني اليمين كتب
به عنه «عاشق بيده» كتاب بالإنجليزية عنوانه «مبادئ الفلسفة» وكنت قد استغفرت
بتقريبه مع أحد اخواني وهو على شكل بالخط. وقد لاحظت في تصويره لبساً غريباً
الجمي فلم أنسى شيئاً إلا اختيار اللبس وهو لباس الذي اختارته يوم عقد الزواج - وربما
كانت له أكبر الأسباب التي غلبت على تصويره فقد كان في ألبسته شعراً شكل الجيدة وهو
البسمة بالفرادية وأبدت قواماً آخره لبسته وهو هيئة عروجه لثابتة في النفس والجم
كبير وربما تبينت الفرق بينه وبين البسمة إذا كان له من الوجه تسع فتعرت بعد كذا زواج
والميراث أيضاً على أنه لبنة المنة فتدبر سنة تختم حياة العبد والفتوة وهي فاعلة
حياة يعلب خط على بعض الركود على أني - والاضيق القواد - لم أتفق بزره ككاد
نظم في المرح والفرح واللا وهو والواجب لعلي سقاي كشي قبل أدامه ليخوض وهو قد
شك أن الرتبة المنزلية فقد كانت تربية أساساً لتخفيف وإلهاء - ولم أنه بحرف
بفرح وسرورة المنزل - وفي هذه البنية أحسن بين إلى الخلة وجب على أني أن أدرك بالإنجليزية
على سبيل الإنجيزه يجوز كانت تعلى به نفسي كقضي به لاني فطانت قاطبة كبر بقو إلى
«تذكر أنك شاب» وكانت تنق في البرود وسكنه الشيخ - وقد تغيرت كبره إلى
وأخذت إلى خير وبرجع ذلك إلى عواصي أهرط قلم اللغة الإنجليزية وما كان به عواصيه من اللغة
الإنجليزية رقيقة خلقت أحدها عجز والأخرى ضارة متروكة وما نزلت دروساً بالاختلاف مع اللغة
نظره من القضاء عاطفة برمان - وما أحسن أيضاً أني لو أنه أكثر حرية في الفكر كبر كقوة
لأن ترجمه انتقاد بعض لاني الفقهية وما يتبعها - وأكده يسي خلف لبنة إلى القراءات على
بالعناج والأخص مع ما أجده من الصور لقرب عهدي بقلم الإنجليزية فقد برأته في نقله في بيان
١٩١٦ على نحو سببه ولطفاً أقول - وأنا لو أنه لم يكن من اللغة العربية ١٢٤٠ ولم أنسى
لأنه لم يزلت أفتقد على قفها وأنا أجهل به أنه يصنع على قيام بيني وبينهم

لأنني من جهة الحقيقة والجمالية - كتب في ٢٠ يوليو ١٩١٦

مؤلفات أحمد أمين

- (١) فجر الإسلام (الناشر مكتبة النهضة)
 (٢) ضحى الإسلام (٣ أجزاء) (» » »)
 (٣) ظهر الإسلام (٤ أجزاء) (» » »)
 (٤) يوم الإسلام (» دار المعارف)
 (٥) حى بن يقظان (» » »)
 (٦) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية (» مكتبة النهضة)
 (٧) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث (» » »)
 (٨) الأخلاق (» لجنة التأليف)
 (٩) حياتى (» مكتبة الآداب)
 (١٠) فيض الخاطر (٩ أجزاء) (» مكتبة النهضة)

وهو مجموع مقالات أدبية واجتماعية وسياسية

- (١١) الشرق والغرب (الناشر مكتبة النهضة)
 (١٢) النقد الأدبى (جزءان) (» لجنة التأليف)
 (١٣) هارون الرشيد (» دار الهلال)
 (١٤) الصعلكة والفتوة فى الإسلام (» دار المعارف)
 (١٥) المهدي والمهدوية (» » »)
 (١٦) إلى ولدى (» مكتبة الآداب)

كتب باشتراك :

- (١٧) قصة الفلسفة اليونانية (مع الدكتور زكي نجيب محمود)
(الناشر لجنة التأليف)
(١٨) قصة الفلسفة الحديثة (مع الدكتور زكي نجيب محمود)
(الناشر لجنة التأليف)
(١٩) قصة الأدب في العالم (٤ أجزاء) (مع الدكتور زكي نجيب محمود)
(الناشر مكتبة النهضة)

كتب اشترك في قسرها :

- (٢٠) الإمتاع والمؤانسة
(٢١) ديوان الحماسة
(٢٢) العقد الفريد
(٢٣) الهوامل والشوامل
(٢٤) خريدة القصر وجريدة العصر

كتب مترجمة :

- (٢٥) مبادئ الفلسفة
(الناشر لجنة التأليف)

كتب مدرسية :

- (٢٦) المنتخب من الأدب العربي
(٢٧) المفصل في الأدب العربي
(٢٨) المطالعة التوجيهية
(٢٩) تاريخ الأدب العربي

أحمد أمين

حياته ، بقلم أصدقائه

أحمد أمين ... المرب

بقلم الدكتور

إبراهيم بيومي مكرم

إن ثقافة أحمد أمين من تلك الثقافات الخصبية المتعددة الألوان ، فكان أدبيا ولغويا ، فقيها ومحدثا ، مؤرخا ومحققا ، أخلاقيا واجتماعيا ، فيلسوفا ومتصوفا . وقد كتب في كل هذا ، وخلف آثاراً قيمة . وهو دون نزاع من أوسع مفكرينا المعاصرين ثقافة ، وأفسحهم مجالا ، وأبعدهم آفاقا . ولم يكن غريبا أن يוכל إليه أمر الثقافة العامة إن في وزارة المعارف أو الجامعة العربية ، وبقي يتعهدا حتى النفس الأخير بفكره وعمله ، وصوته وقلمه . ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، وهو منها بمثابة الروح من الجسد ، آية كبرى من آيات إيمانه بالعلم والثقافة .

وهناك ناحية أخرى تعتبر — فيما نعتقد — نقطة البدء في حياته العقلية كلها ، ونعني بها التربية ، وعن طريقها امتد به البحث إلى شتى النواحي . ولم يكن بد من أن يكون أحمد أمين مربيا ، فقد أخذ عن أبيه الوعظ والإرشاد والترغيب والترهيب ، وهي إحدى وسائل التربية . ثم تلمذ لعاطف بركات ، أحد أئمة المربين المصريين في نصف القرن الأخير . ولا نظن أن من بين أبناء القضاء الشرعي من أخذ عن عاطف أخذه ، أو تأثر به تأثره . تزاملا زمنا ، وشغفا بالمعهد الذي التقي فيه حبا ، وأرادا أن يجعل منه مدرسة مثالية ، لا تخرج علماء وباحثين فحسب ؛ بل رجالا لهم شخصيتهم واستقلالهم . وعلى هذا كان

لا بد أن يوكل أمرها إلى أهر المربين وأكفئهم ، وأن يختار لها أحسن الطلاب وأصحهم .

وقد بلغ به ولعه بالتربية أن ضحى في سبيلها بكرسى القضاء الذى أعد له وهَدَفَ إليه ، بالرغم من أنه كان مرموقا عظيم المنزلة يتمناه زملاؤه وأنداده . فلم يملك فيه إلا وقتا قصيرا ، ثم عاد مسرعا إلى مدرسة القضاء مشرعى يربى ويعلم ، ويؤدب ويهذب . وما إن ظهر التعليم الجامعى الأمريى حتى كان من بناته ومؤسسيه ، فقام على أمر كلية الآداب بالجيزة — فيمن قاموا — أستاذا وعميدا .

ولم تكن التربية في رأيه مجرد درس يلقي ومعلومات تشرح ، بل حرص الحرص كله على أن تكون تفتيحا للذهن وإيقاظا للانتباه والملاحظة ، وتعهدا للسلوك وتقويما للأخلاق ، فكانت تربيته فكرية وروحية . ولم يمنعه زيه وبيئته من أن يساهم في التربية البدنية ويدعو إليها ما وسعه ، وكم تقم على الأزياء المصرية عامة وبعدها عن الانسجام والتناسق .

ولم تكن التربية عنده أيضا مقصورة على التلاميذ والطلاب ، بل أراد بها أن تكون عامة شاملة تصوب إلى الشعب بأسره ، وتغذى المجتمع كله . وقصد إليها عن طريق الأندية والصحافة اليومية والأسبوعية ، بما كان يقدم من أحاديث ومحاضرات ، أو ينشر من خطرات ولحات ونقد وتعليق ، ولا زلت أذكر مقالة مقاله الذى نشر فى « السفر » منذ خمس وثلاثين سنة تحت عنوان : « سياحتان فى مكتبتين » . وهو فى كل هذا يحلل التقاليد والعادات ، ويناقش الذوق والعرف ، ويقارن الشرق بالغرب ، ويوازن بين الحاضر والماضى ، ويرمى إلى وضع دعائم تربية اجتماعية استقلالية .

وإذا كان لم يكتب عن التربية في استقلال ، فإنه عرض لها في كثير من كتبه ورسائله . ويمكن أن يرد منهجه التربوي إلى أصول ثلاثة : القدرة العملية ، والاتصال المباشر ، والتبصير بشئون الحياة .

فأما القدرة العملية فكان يؤمن بها الإيمان كله ، ويقدر ما لها من أثر فعال ، ويتمسكها في الحاضر والماضي . وقد ضرب له منها عاطف بركات أمثلة كثيرة حية ، وحرص هو أيضاً على أن يقدم لتلاميذه أمثلة أخرى متعددة . وأشهد أنه كان قدوة صالحة ، يعنى بدقائق الأمور عنايته بعظائمها ، فيلاحظ نبرات الصوت وطرق الأداء كما يتحرى عن الأفكار ويدقق فيها . وينفر من العورات والأمور الخاصة ويستنكر التعرض لها ، وأذكر أنه أغفل « باب الاستنجاء » وإن كان جزءاً من مقرر الشريعة ، وأبى أن يدرسه . لم يناقض قط عمله قوله ، ولم يتردد يوماً في أن يجاهر بما كان يؤمن به ، وأصدقائه وتلاميذه يعرفون مواقفه في الحركة الوطنية ، فكان سابقاً إلى الإضراب إن رأى ضرورته ، وداعياً إلى العمل والدرس إن اقتضت المصلحة ذلك .

ولم يقنع بقدرة الحاضر ، بل كان يبحث عن قدرات مختلفة في الماضي . ولذا أولع بتحليل كبار الشخصيات ، راجعاً أن يبرز فيها ما يمكن أن يحتذى . وقد التزم هذا حتى في دراساته التاريخية الواسعة « كضحي الإسلام » ، فحتم كل فصل بالتأريخ لشخصية كبرى في موضوعه . وما ذاك إلا لأنه كان يرى أن الفكرة تبدو أوضح على لسان قائلها ، والعقيدة أقوى في شخص معتنقها . وإن في هذا لدرساً ما أوجبنا أن نفيد منه ، لا سيما وقد أضحت وسائل تربيتنا آلية تعنى بالسك أكثر مما تعنى بالكيف ، وتكاد تغفل أمر القدرة العملية وما لها من أثر .

وأما الاتصال المباشر فوسيلة الفهم والتفاهم ، وسبيل الارتباط النفسي والامتزاج الروحي . بيد أنه ليس في متناول الجميع ، وقد يعز على بعض الأشخاص . وأحد

أمين كما نعلم كان متصرفا في قرارة نفسه ، يطمئن إلى الخلوة ، ويلذ له التأمل الهادئ* وتفكير المتوحد ، وفي خلوته المنتجة أخرج لنا من مؤلفاته الكبرى .

ومع هذا كان يحرص على الاتصال بالناس بقدر ما يرى في ذلك من أداء رسالة وتحقيق معنى من معاني التربية . فكان بيته مفتوحا لتلاميذه وأصدقائه ، وكانت جلسة لجنة التأليف الأسبوعية مقدسة لديه ، فلم يتخلف عنها إلا في القليل النادر . ورواد هذه الجلسة يدركون ما كان يثار فيها من درس وبحث ، ويقدرّون ما كان لها من أثر في تبادل الأفكار والمشاعر . وكما كان أحمد أمين يتمنى — مع أستاذه عاطف — أن يكون له على من يتصل بهم نفوذ مشايخ الطرق في حكمة الفلاسفة . وعن طريق اتصاله المباشر استطاع أن يخلق مدرسة ويكون رجالا .

وكان يرى أخيرا أن التربية الحقّة هي تلك التي تبصر الشبان بشئون الحياة وتعدّم لها ، وهذا ولا شك من أحدث الآراء التربوية وأقواها . فلم يقف مع التلاميذ والطلاب عند شرح القوانين والنظريات العلمية ، بل أضاف إليها معالجة المشاكل الحاضرة ، سياسية كانت أو اجتماعية ، أدبية كانت أو أخلاقية . وطريقته في ذلك أخاذه نافذة تستولى على الأسماع وتملك الأفتدة ، وقد وصل به الأمر في أحد الأعوام الدراسية أن وقف حصة أسبوعية على التبصير بشئون الحياة ، وكنا نسميها حين ذاك حصة « المربة » ، واسمها وحده كاف للتدليل على ما كانت تشتمل عليه من حلاوة وطلاوة ولا أغلوإن قلت إن هذا الدرس كان أجدى وأفعل في إعداد الشباب من دروس علمية كثيرة .

وواجب أن تبقى المدرسة دائما وثيقة الصلة بالمجتمع تردد أصداءه وتعدهله . والحكمة كل الحكمة في أن تتعهد هذه الصلة وترعاها ، وبذا نعيش في جيلنا وله . ورحم الله أحمد أمين الذي كان شعاره : اكتب وفكر بلمعة العصر وروحه .

أحمد أمين ... الأدب

بقلم الأستاذ

أحمد حسن الزيات

رحم الله صديقي أحمد أمين ! لقد كان في أعقاب عمره دنيا من العلم والأدب ، في هيكल بال من المضل والعصب ! ومن الصعب على نفسى وقد صادفته أربعين سنة متابعة أن أقول في الدعاء له : (رحم) ولا أقول : (حيا) ؛ وأن أستعمل في الإخبار عنه (كان) ولا أستعمل (هو) . وعسى أن يكون من بعض عزائنا عنه أننا ما زلنا نعيش معه في كتبه ، وتتصل بروحه في أدبه . ولعلك لا تجد تلازما بين شيئين أشد مما هو بين أحمد أمين وما يكتب . فقد كان إذا ألف كتاباً أو أنشأ مقالا أو ترجم فصلا ظل باقياً وراء كلماته وخلال سطوره ، يعرض عليك الصور ، ويقرر لك الآراء ، بطلعته الباسمة في غير افتتار ، ولهجته الخازمة في غير أمر ، وعقله القوى في غير صلف ، وطبعه الحي في غير ضعف ، وأسلوبه الهادئ في غير فتور ، فلا تدري أنقرأ أم تسمع ، وكتاب في يدك أم رجل معك .

نشأ أحمد أمين نشأة أزهرية . وأعنى بهذه النشأة ما يلزمها من نمط خاص في الحياة والتربية والدراسة والوجهة . ومن غريب هذه النشأة أنها تساعد على الهبوط ، كما تساعد على الصعود . فتخرجو الأزهر في عهده القديم كانوا إما قادة للشعب وإما حميلة عليه ؛ لأن حرية التعليم فيه كانت تهيب كل نفس لما خلقت له . فهذا تعدد ليكون قارئاً في ضريح أو إماماً في جامع ، وذلك تعدد ليكون مستشاراً في محكمة أو أستاذاً في جامعة . وأحمد أمين كان كمحمد عبده وسعد زغلول قد زوده الأزهر بخير ما فيه من صبر على الدرس ، واتكاء على النفس ، واستقصاء

لأطراف البحث ؛ ثم دفعه إلى الحياة دفعا ، فاستكمل ثقافته في مدرسة القضاء الشرعى ، ثم اشتغل بالتعليم ، ثم تولى الحكم بين الناس في المحاكم الشرعية ، ثم تقف على نفسه اللغة الإنجليزية ، ثم تبوأ كرسيه في الجامعة المصرية وفي مجمع اللغة العربية ، ثم احتل بمؤلفاته مكان الزعامة العلمية .

لست بصدد الحديث عن نواحي العبقرية في حياة الفقيه وملكاته ومؤلفاته ؛ وإنما هي كلمة موجزة في طبيعة أدبه أكتبها في يوم ذكره ، تحية وفاء ألقيا على روحه ، وطاقه زهر أضعها على قبره .

كان أحمد أمين متضلعا من علوم الدين واللغة ، كأكثر النابغين من المتخرجين في الأزهر ؛ ولكنه كان من الأزهريين القلال الذين أوتوا دقة النظر ، وحرية الفكر ، وسعة الأفق . فكان في الدين صاحب اجتهاد ، وكان في اللغة صاحب رأى .

كان يرى أن الدين دستور للعالم ، فلا بد أن يتطور مع العلم وأن يتقدم مع الحضارة . وكان يرى أن اللغة أداة للنهضة ، فلا بد أن تطويع لآلسنة الناس وأن تجدد على طول الزمن . وكان رأيه في الأدب قائما على رأيه في الدين ورأيه في اللغة .

فالأدب تفكير مستمر يتأثر بالفكر العام ويؤثر فيه . والأدب تعبير متجدد يصور المجتمع الحاضر ويترجم عنه . فطبيعته المرونة لا الجود ، وغايته الحق لا الجمال ، وعدته الانطلاق لا الفن . ذلك لأنه كان من الكتاب العقليين الذين يزاوون الكتابة عن علم لا عن ساقية ، ويتخذون الأدب وسيلة لا غاية .

كان همه من الكتابة أن يقرر ويقنع ، لأن يؤثر ويمتص . ولعل منشأ ذلك فيه أن عقله كان أخصب من خياله ، وأن علمه كان أكبر من فنه ، وأن حبه للحرية والصراحة كان يحجب إليه إرسال النفس على سجيته من غير تقييدها .

بأسلوب معين ، وعرض الفكرة على حقيقتها من غير تمويهها بوشى خاص .
ومع ذلك كان لأسلوبه طابعه المميز وجاذبيته القوية . تقرأه فلا تروعك منه الصور
البيانية الأخاذة ، ولا الأصوات الموسيقية الخلابه ؛ وإنما تروعك منه المعانى المبتكرة
الطريفة ، والآراء الصريحة الجريئة ، والشخصية القوية المهيمنة . فأنت منه يازاء
عالم يبحث لينتج ، أو مصلح يصف ليعالج ، لا يازاء مصور يلون ليعجب ،
أو موسيقار يلحن ليطرب .

على أنه كان يتوخى الجمال أحيانا فى الأسلوب بحكم الأثر الذى تركته فيه
درايته للقرآن والحديث ، وروايته للشعر والنثر ، ودراسته للبيان والنقد ، فيجمع بين
حسن الفكرة وجمال الصورة ، ويلائم بين وزانة المعنى ورسانة اللفظ . وربما
كان ذلك أظهر ما يكون فى كتابه (حياى) ؛ فإن فى تصويره البيت والسقاء
والحدث والكتاب والأزهر ، وفى وصفه لأبويه وأخويه وصديقيه عبد الحكيم
محمد وعلى فوزى ، وأستاذه عاطف بركات ومس بور ، لنماذج من البيان المطبوع
الذى يشرق بنور العقل ، وينبض بروح العاطفة ، ويزهو بألوان الفن .

* * *

ذلك أحمد أمين الأديب بالمعنى الأخص للأدب : أما أحمد أمين بمعنى
الأدب الأعم فقد كان أعظم شأنا وأبلغ أثرًا وأرفع مكانة . وحسبه أنه حلل
الحياة العقلية للعرب والمسلمين فى كتابه : فجر الإسلام وضحاها وظهره ، تحليلًا لم يتهمًا
مثله لأحد من قبله . وستظل هذه الكتب الخالدة شاهدة على الجهد الذى لم يكل ،
والعقل الذى لم يضل ، والبصيرة التى نفذت إلى الحق من حجب صفيقة ، واهتدت
إليه فى مسالك متشعبة .

لقد كان أحمد أمين ناجحًا فى حياته العلمية والعملية . وكان نجاحه فيهما
نجاحًا للجد وفوزًا للفضيلة ؛ لأنه لم يعتمد فى شهرته العلمية على الإعلانات

والتهوئش ، ولا فى مناصبه الحكومىة على الاستخذاء والملق . وإنما كان يجرى فى عمله على الإخلاص ، وفى معاملاته على الحق ، وفى علاقاته على الشرف ، بالتصيب الأوفر مما يطيقه الإنسان الخاضع بحكم طبيعته لآثار الوراثة والبيئة والظروف . وما كانت حياته الحافلة إلا مثلاً للحياة العاملة فى غير ضجيج ، الناصبة فى غير ملل ، المثمرة فى غير غرور ولا دعوى . فكانت أشبه شىء بالنبع السلسال العذب ، يسيل حلو الخرىر تحت شواجن الأدغال وفوق مطمئن الأرض ، فيروى العطاش ويمرع السهول فى غير هدير ولا صخب .

جعل الله روحه للخلد كما جعل ذكره للخلود ، وعوض الأدب والعرب من فقدته خير العوض .

أحمد أمين ... الصديق

بقلم الدكتور

أحمد زكي

ما أعجب مسالك الناس في هذه الحياة ، وما أعجب الأسباب التي يلتقي بها الناس في مسالك الحياة . إنه ليس يكفي أن تتقابل الوجوه حتى يتم اللقاء . ولم مرة مس كتفك كتف رجل في الطريق ، أو حتى صاغت يدك يد رجل في الطريق وغير الطريق ، ثم انتفى أثر ذلك من اللوح المرقوم ، كالقلم تخط به في الماء ، لا يكاد أن يكون له أثر في الماء حتى ينتفى . وقد تخطّ به في الرمل ، فيبقى الأثر بمقدار ما تهدأ الريح ، ثم تسفوه فكأنه ما كان .

لم يكن لقائي بأحمد أمين ، أول الأمر ، لقاء عابراً ثم توثق ، كان لقاء تدعمه وشيجة من وشائج الأرحام .

وأنظر اليوم في التاريخ البعيد ، إلى الوراء ، عشرة من السنين فعشرة ، فاثنتين أخرى من العشرات أو ثلاث ، استشفّ في ضباب تلك السنين الماضية كيف لقيت أحمد أمين أول مرة ، فأذكر أنى صبي ، وأذكر أن والدى جاءني يقول لى ستكون في صحبتى اليوم في زيارة عمك ، في القلعة ، في منزل الشيخ إبراهيم ، وأحمد أمين — لو كمل اسمه — لكان أحمد أمين إبراهيم . وذهبت معه ، ورأيت القلعة ، وأحسب أن تلك كانت أول رؤية لها . ومن القلعة دلفنا إلى مسجد الشيخ الرماح . ومن المسجد دلفنا إلى حارة من حارات مصر التي كانت في تلك الأيام مأوى الناس حين يسكنون ويريحون . والحارة طويلة

ظليلة ، ساكنة هادئة ، يغلب عليها الظلام أكثر ما يغلب النور لضيق في مسلكها ، وطول في مساكنها . ثم نفق ، أنا ووالدى ، عند نهاية الحارة المسدودة ، أو ما كاد أن يكون نهايتها ، عند بيت ارتش الماء أمامه . ودخل والدى ودخلت وراءه ، فوجدنا الشيخ في حجرة إلى اليمين وقد جلس يقرأ ، ووجدنا أولاده ، قد تفرقوا في حجرات الدار السفلى ، كذلك يقرأون . والقراءة منها المسموع ، ومنها الخفيض الذى لا يسمع . وهى لاشك كانت قرآنا ، أو كانت فيما اتصل بالقرآن من حديث أوفقه ، فالسكتب كانت صفراء . وكذلك الجوسكونه في الدار ، مع شدة الظل فيها ، كان يوحى بأن الدراسة كانت من الجذب بحيث أنها لم تسمح بدخول الكثير من النور . وخُيل إلى أن هذا الشيخ الجالس ، في تلك الحجرة اليمينية ، لا يفتأ يرقب ما يجرى في ردهة الدار وحجراتها من دراسة ، وأن طاعة أبنائه له لم تكن طاعة بنوة فحسب ، بل كانت فوق ذلك ، وأكثر من ذلك ، طاعة تلمذة لمعلم ، على الرغم من هدوئه وتوقره ، صارم . وانتهت الزيارة وما أحسب أنى في هذه المرة عرفت من أحمد أمين شيئا ، إلا أنه أحد إخوة ثلاثة ، يكبرونى ، أنا الصبى ، بنحو عشرة من السنوات فما فوقها ، وأنهم طلبة أزهر يون ، لأب أزهرى عالم تقى نابه صارم .

* * *

وأغوص في التاريخ مرة أخرى ، فأجدنى ، بعد تلك الزورة الأولى في حى القلعة ، بمنزلنا ، في طرف من أطراف بولاق ، يطل على النيل . كان الوقت عشاء . وكنت في حجرة ، أنا ووالدى ، نقرأ جميعا . هو يقرأ أدبا ، وأنا أقرأ علما ، وكانت مسائل في الهندسة ، فأحسبني كنت عند ذاك في السنة الثالثة الثانوية ، بالمدرسة التوفيقية . ودق الباب ، ودخل علينا الشيخ أحمد أمين . جاء يزور والدى ، وكانت توثقت بينهما علاقة فكر . كان والدى ثائر الفكر ، شيخا . وكان أحمد أمين ثائر الفكر ، شابا . والتقى المزاجان . واطلع أحمد أمين في تلك الزيارة على

ما كنت أصنع ، ودخل فيما كان بين يديّ من مسائل في الهندسة عرفت منها أنى
أمام شيخ غير من عرفت من أطرزة المشايخ . وحسبت أن أحمد أمين كان في حديثه
في الهندسة ، في تلك الزورة ، به بعض تيه ، بأنه ، وهو الشيخ المعم ، يستطيع
أن يجادل ولو صيبا مطربشا في علم من العلوم الحديثه التي ظل الأزهر يصفها إلى
عهد حديث بأنها علوم « مما لا تسمعه أفهامنا » . والذي تعلمه أحمد أمين من
ذلك لم يكن قد تعلمه في الأزهر ، ولكن في مدرسة القضاء الشرعى ، وعاطف
بركات ناظرها .

وذهب الموت بوالدى ، وبقى أثر من والدى في أحمد أمين ، حتى جاء الموت
يطرق باب أحمد أمين . كانت ثورة والدى الفكرية قد تحولت في شيوخته
إلى عزوف عن الدنيا ، وقلة إيمان بمن خلق الله من الناس . وانتهى هذا العزوف
بأن قطع والدى علاقته في آخر أيامه بالناس ، وبأكثرهم قربا إليه . وأنس في
وحدته بالله . وقد أحمد أمين ما صنع والدى ، حتى بلغ من الشيوخوخة ما بلغه
والدى أو قارب . ذكر لى في سنته الأخيرة والدى ، قال : كنت أراه على غير حق
في قطيعة الناس ، واليوم لا أرى شيئا عندى أكره من الناس ، ولا أשוב في
هذه الدنيا من قطيعة ، ولا أروح ولا أصفى لبال المتأمل الزاهد . وأنا اليوم
سائر في سبيل سلكه والدك من قبلى .

* * *

وأغوص في التاريخ مرة ثالثة ، هي غوصة أقل من الغوصتين السابقتين عمقا ،
فأذكر أنى أسير والشيخ أحمد أمين ، على كوبرى بولاق ، تنسم ما كان يهب
من الشمال من ريح في الصيف باردة . وكان معنا نفر من الأعضاء الأولون الذين منهم
تكونت لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وعلى رأسهم أحمد أمين . وكانت الحرب
العالمية الأولى قائمة . وكان أعضاء اللجنة مطربشين ، لإعامة واحدة ، علوا بها

فوق الطرايش ، للذى كان تحتها من رأس ناضح ، ومن قلب وقور حساس . وتأثر صاحب العامة فيما تلا من السنين بأصحاب الطرايش ، وتأثر أصحاب الطرايش بصاحب العامة ، واتصل هذا الأثر أربعين عاما كاملة . فقد ظل أحمد أمين رئيسا للجنة التأليف ، ينتخب بالإجماع عاما بعد عام ، أربعة عقود من السنين ، انتهت بوفاته .

وتحولت بذلك الصداقة التى بيننا ، من صداقة أسرة ، إلى صداقة أسرة ممزوجة بصداقة عمل ، وصداقة أمل ، وصداقة جهاد .

* * *

وتنتهى الحرب العالمية الأولى ، وتقوم الثورة المصرية . فنرتب فيما بيننا ، وبين إخوان آخرين لنا ، المظاهرات ، ونرتب المظاهرات . وأرانى ، أنا وهو ، على رأس فئة للمعلمين فى مظاهرة ، تحمل علما ضخما ثقيلًا . أحمله فأتعب . فيحمله عني ، وهو الشيخ ، حتى يتعب . وتركنا المظاهرات لغيرنا . فلم نكن بحكم المزاج هتافين . وبقي هذا المزاج فيه إلى أن مات ، وأحسبه باق عندى إلى مثل هذا المآل . وما هو قلة إيمان بالحق ، فى تلك المظاهرات الأولى كنا نسير والرصاص يجرى من فوق رؤوسنا . ولكن استحياء من أن يقال فلان وطنى ، ويكون ثمن ذلك صرخة ، هى من هواء ، يصرخ بها صارخ فى تظاهر عام قد يلتبس بالتظاهر الفردى الشخصى . وكما أذى هذا المزاج أحمد أمين فى حياته ، وكما آذانى . ومن هذا المزاج خشية اللق ، جعلته يحجم وأحجم عن كثير من الواجبات ، فى الكثير من المناسبات . وما هو إحجام عن حق ، أو عن مناصرة فى حق ، ولكن مغالاة فى الاحتفاظ بكرامة الإنسان .

إن الذى أَلَف بين أحمد أمين وبينى مشاركة فى الطبع ، هذا أحد أمثالها ، وكذلك وحدة فى الفكر . كان يقول وأقول ، فكأنما هو وتر فى جوقة يناغم وترا .

ويشكو وأشكو ، فيرتاح كلانا من بث الشكوى . أو يقول ما يسر وأقول ،
فنفغبط جميعا بهذا السرور . وكم قال فكرة تبلورت عندي بعد قيام فكانت مقالة ،
وكم قلت فكرة تبلورت عنده فكانت مقالة . وملتقى من بعد ذلك فنتضاحك
على هذا الوحي والإيحاء كيف جرى بيننا .

وكان يحب في شبابه التوت الإفرنكى ، المعروف بالفولة أو الشليك ،
وكنتم أحبه . وإذا به يوما يشتري في الجزيرة ، فيما بلى كوبرى قصر النيل ،
بمبلغ كبير ، مقداراً من الشليك عظيماً ؛ لا يكفي واحداً ، بل يكفي عشرين . قال :
إذا اشتاقت نفسك إلى شيء ، وكرهت منها أن تشتاق كل هذا الاشتياق ، فلا
تمنعها عنه تأديباً لها ، ولكن أغرقها به إغراقاً . اجعلها تأكل حتى تعاف ، فقد
يكون في ذلك إبراء لها مما تشتهى ، من الحلال .

* * *

واعترفت الرحيل عن مصر إلى إنجلترا . واتصلت بيننا عبر البحر المكاتبية .
كنت أكتب ويكتب . ومن كتبتى إليه ، وفيها من نار الشوق ما فيها ، ومن
بث ألم الغربة ما فيها ، ما كان يقرأه على طلبته في مدرسة القضاء الشرعى . حدثنى
بذلك ، عام أول ، تلميذه السيد الفاضل الشيخ محمد أبو زهرة ، أستاذ الشريعة
بجامعة القاهرة ، كما حدثنى به آخرون .

وكتب لى مرة يقول إنه بعد أن افتقد صحبتي ، من الله عليه بشبيه لى ،
يأنس إليه كما كان يأنس إلى ، شاب عاد من فرنسا ، أو لعله كان ذاهباً إليها ،
اسمه عبد الرزاق السهورى . واشتقت إلى رؤية هذا الشبيه البديل ، إلى أن التقيت
به ، بعد غيبة سنوات عشر ، على مائدة مجلس إدارة الجامعة المصرية . التقينا
أستاذين ، السهورى فى الحقوق ، وزكى فى العلوم .

ودخل الشيخ أحمد أمين الجامعة ، ورأى أن يغير العمامة بالطربوش ، مجارة

للزمان ، وانسجاما مع بيئة الجامعة . وكتب يستنصحنى ، عبر البحار . ولست أذكر اليوم بأى شيء نصحته . ولكن يحيل إلى الآن أنى قلت له إنه حمل العمامة بضعا وثلاثين عاما ، وأنها خدمته بضعا وثلاثين عاما ، وإن الطلاق بعد هذه العشرة الطويلة ، لأن الرأس الذى يحملها قد أترى ، شيء فى دستور الحب لا يستحب . وعلى قلت له ، إنه إذا احتاج إلى الطربوش ، فما الطربوش بحاجة إليه . وإنما صاحب الحاجة إليه العمامة . إن سوق الطرايش كانت رائجة ، والعمامة كانت فى حاجة إلى رأس كراسه يدعمها ، كما دعمها من قبل له فى مصر وغير مصر أشباه . ثم تركت له أن يختار . وعدت فرأيته ، ورأيت الإخوان ، قد تطربشوا . فخرنت للعمامة أن يطرحها أهلها هكذا اطراحا . وكان ممن اطرحها صديق أحمد حسن الزيات . وبينى وبينه من صلات المحبة وشائج تمتد جذورها فى الماضى البعيدة .

وامتدت الصداقة بينى وبين أحمد أمين نحواً من أربعين عاماً ، لا أذكر أنه وقع فيها بيننا جفوة ، إلا جفوة واحدة دامت يومين . وكانت جفوة فكر تتعلق بزميل ، أخذ يهدم من خير حساب . وأكره ما أكره الهدم بغير بناء . لا سيما الهدم فى أصول عليها الحياة قائمة . وناصر أحمد أمين الزميل باسم حرية الفكر ، ونشره . وقرأ الناس ما نشر . وخفت أن أقرأه . وإلى اليوم لا أدرى ما كتب . فهكذا بلغ الحب بينى وبين أحمد أمين .

وفى اشتداد علته الأخيرة زرته . وكانت الجامعة أيضاً فى علة . وكان الوقت صباحاً . وصعدت إلى حجرته ، وكان وحده ، فراغنى منظره . كان منظر من يئس من الحياة فترك تقليم الحياة وتهذيبها . قال : كيف تزورنى فى هذه الساعة وروما تحترق . قلت : إن البلد الذى يحرقه أهله ، حتى لا يبقى فيها صغير ولا كبير إلا يستوقد لنارها ، بلد حلّ به غضب الله . وتذاكرنا الخيبة ، وتذاكرنا أمور



أحمد أمين في شبابه

الأجيال . وقت عنه إلى روما ، أشق لنفسى طريقاً في لهما .

* * *

وجاء آخر لقاء .

كان هذا في أمسية ، بدار لجنة التأليف . وانصرف الناس وبقيت معه وحده . وإذا بنفسه تغيم فجأة كما تغيم السماء . وكنت أعرف ذلك من وجهه وقبل أن يتكلم . وأخذ يتكلم ، ويذكر الحياة وقلة جدواها له بعد الذى كان . كان يشكو أن قصر النظر بلغ به أنه يسلم على الرجل فلا يدري من هو . وعزّت عليه نفسه ، وغالبه البكاء فأخذ ينشج به . وأمسكت بيده أشد عليها . قلت : تماسك يا رجل . وكانت نصيحة قائلاً كان أحق بها . وتتاخر سيارته فأحمله في سيارتى . وأسرع لأقوده في الظلام عند باب بيته وهو يهبط من السيارة . فإذا به ينادى الخادم حتى يرفع عنى كلفة إسناده ناحية الباب .

و بعد ٣٦ ساعة يدق التليفون في مكنتى .

إن أحمد أمين قد مات تَوّاً .

وأسرع إلى بيته ، فلا أجده أحدّاً . لقد تفرق أولاده في تجهيز الجهاز فلم يتخلف منهم في البيت أحد . وأصفق وليس من يرد . والبيت هادى ساكن . قفر لولا الحديقة . وأحضرت لنفسى كرسيّاً كان في الحديقة وجلست . وأنظر إلى تلك الغرفة العليا ، وأنا أعلم أن أحمد أمين مسجّى فيها ، ولكن لا سبيل إليه . إن السبيل كان أيسر إليه وهو حيّ .

* * *

شئ لا بد أن أفوله قبل أن أكفّ . ظن أحمد أمين أن الحياة عافته ، وأنها هجرته . والحق أنه هو الذى عافها ، وهو الذى احتقرها في أيامه الأخيرة واحتقر ناسها . حضرنا حفلاً في سفارة العراق ، عصر يوم . وازدحمت السفارة بضيوفها .

وهناك التقيت بأحمد أمين . ظهر في هذا الحفل بما لم يجر الناس على أن يظهروا عليه في الحفلات : الذقن لم تحلق من أيام . والقميص مفتوح صدره ، وليس بياقته رباط . والهندام كله يكاد يهزأ بالحاضرين .

ودلف إلى في الحفل صديقي إميل زيدان . قال لي : ماذا جرى لأحمد أمين . قلت : ذهب عنه احترام الدنيا . فقال إميل قولة من أحلى ما يقال في هذا الموقف ، ومن أصدق ما يقال . قال : بل إن أحمد أمين ارتفع عن المجتمع ، فلم يأبه فيه بما يصنع .

رحم الله أحمد أمين ، بمقدار ما عاش ، وبمقدار ما جهد في عيشه لنفسه ، ولولده ، وعلى الأكثر للناس . ورحمه رحمة واسعة .

أحمد أمين ... الفيلسوف

بقلم الدكتور

أحمد فؤاد الأهواني

ترك أحمد أمين مؤلفات كثيرة ، وملاً الدنيا بمقالاته وإذاعاته وأحاديثه ، فكان مفكراً عميق الأثر في هذه الفترة من تاريخ مصر والشرق .
وإذا شئنا أن نلتمس فلسفة أحمد أمين فعلينا أن نرجع إلى جميع مؤلفاته .
ولكنني سأقصر البحث على أعلى كتبه شأنًا ، وأستمد منه فلسفته .

لم يظفر كتاب من الذبوع والانتشار والتأثير بمثل ما ظفرت به مجموعة الكتب التي أصدرها أحمد أمين حين أصدر « فجر الإسلام » عام ١٩٢٩ ، وتبعها بضحي الإسلام في ثلاثة أجزاء ، ثم الظهر في أربعة أجزاء . فقد طبعت أجزاءه الأولى ست مرات ، كل طبعة منها بضعة آلاف . وأصبح الفجر والضحي والظهر مرجع كل طالب ، ومرشد كل باحث ، والمنازة التي يهتدى بها الناظر في التاريخ الإسلامي وحضارته .

فقد درج العرب على تأريخ حوادثهم في حوليات كما نرى في الطبرى وابن الأثير وغيرها ، فيذكرون الأحداث من شتى نواحيها ، يختلط فيها التاريخ المحض السياسى بالأدب والعلم والدين ، ولم يعرف أحد من المتقدمين طريقة كتابة التاريخ الحديثة ، اللهم إلا ابن خلدون الذى صور في مقدمته كيف ينبغي أن يكتب التاريخ ، حتى إذا شرع في تدوين تاريخه سار على نهج القدماء .

أما تاريخ الحضارة بمعنى الكلمة فلم يعرفوا عنه شيئًا . فإذا أراد باحث اليوم أن ينهض لتصوير الحضارة الإسلامية في مختلف عصورها ، مع بيان العناصر

المكونة لها ، والظروف التي أدت إلى ظهورها ، كالعوامل الجغرافية والسياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية ، فلن يجد شيئاً من ذلك واضحاً في الكتب القديمة . ذلك أن القدماء كانوا يتصورون أن الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف ، فترى الجاحظ يكتب في البيان والتبيين تفسير آية إلى جانب حكاية للشعراء ، وينتقل منها إلى رأى لصاحب المنطق ، وهكذا . وكذلك الحال في الأمالي أو نهاية الأرب ، وغير ذلك من كتب الأدب ، أو التاريخ ، فكلها استطراد لا نظام فيها .

لذلك كانت مهمة مؤرخ الحضارة الإسلامية مهمة شاقة عسيرة ، تحتاج إلى إحاطة شاملة بكثير من العلوم ، من تفسير وحديث وتاريخ وفقه وأدب واجتماع واقتصاد وفلسفة وعلم كلام وتصوف ، وعلى الجملة كافة العلوم المكونة للحضارة .

ويحتاج المؤرخ بعد هذه الإحاطة الشاملة إلى تنظيم جديد لهذه المادة الواسعة التي جمعها . وهذا التنظيم عقلي^١ ، وتتجلى فيه أصالة الفكر ورجاحة عقله ، لأن الأفكار ليست كالأمور المادية المحسوسة التي تشاهد بالحواس ، بل هي أعلى من الظواهر الحسية ولا تدرك إلا بالعقل . وقد لمس أحمد أمين هذه الصعوبة في كتابته تاريخ الفكر الإسلامى ، فقال في مقدمة الجزء الأول من « ضحى الإسلام » : « لعل أصعب ما يواجهه الباحث في تاريخ أمة هو تاريخ عقلها في نشوئه وارتقائه ، وتاريخ دينها وما دخله من آراء ومذاهب . ذلك أن مدار البحث في المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود ، وما يطرأ عليها من تغير ظاهر^٢ جلى^٣ . أما الفكرة فإذا حاولت أن تعرف كيف نبتت ، وكيف نمت ، وما العوامل في إيجادها ، وما العناصر التي غذتها ، وما الطوارئ^٤ التي طرأت عليها فعدلتها أو صقلتها ، أعياك ذلك ، وبلغ منك في استخراجها الجهد ... » .

وفي هذه العبارة القصيرة التي نقلناها يتضح الدستور العقلى الذى رسمه

أحمد أمين لنفسه ليسير على نهجه في تفصيل الحياة العقلية عند المسلمين ، منذ نشأتها حتى العصور الحديثة .

فهو يحلل بعقله العقلية الإسلامية في تطورها .

والنظر بالعقل في العقل هو الفلسفة على التحقيق . فقد قيل في تعريف الفلسفة أمور كثيرة ، أشهرها ما ذكره المعلم الأول من أنها العلم بالعلل والمبادئ الأولى . وقد انحصرت الفلسفة اليوم بعد انفصال العلوم المختلفة عنها في تحليل العقل البشرى . ولم يفعل أحمد أمين أكثر من ذلك ، حاول أن يلتمس العلل البعيدة التي غذت العقلية الإسلامية ونمتها وصقلتها وشكلتها في شتى الصور على مر العصور . واقتضى منه هذا التحليل أن يرجع إلى العوامل الدينية المستمدة من الإسلام ، وإلى العناصر الدخيلة على المسلمين من الحضارة الفارسية والهندية ، ومن الفلسفة اليونانية ، وكيف تفاعلت هذه العوامل كلها في بوتقة الحضارة الإسلامية . وفعل أكثر من ذلك أنه نظر إلى العقل الإسلامى فشرّحه ، في حرية شديدة ، وانتقل من التحليل إلى الأفكار التركيبية التي انتهت إليها العقلية حتى تحققت في الحياة ، واستوت في مظاهر السلوك ، وبرزت في الأقوال المسطرة ، والكتب المدونة ، والعلوم المنتشرة .

ومن هذا الوجه كانت لأحمد أمين فلسفة أبرزها في أعلى كتبه شأنًا ، وهو فجر الإسلام ونجاحه وظهره .

وتقوم هذه الفلسفة على أن الشرق يمتاز بظاهرة قوية أثرت تأثيراً عظيماً في حياته ، وصبغت تفكيره بصبغة غلبت على جميع أنظمته ، ذلك هو الإسلام الذي انتشر من أقصى الشرق في الهند إلى أقصى الغرب في الأندلس . فإذا شئنا أن نعرف حالنا اليوم ، وأن نتبين ما لنا من فلسفة ، أو ما ينبغى لنا أن تكون ، فعلينا أن نرجع إلى تلك الأصول الإسلامية البعيدة منذ ظهور الإسلام ، بل قبل ظهور

الإسلام ، لتبين الأسس التي قامت عليها ، والعوامل التي أدت إلى قيام الحضارات المختلفة . فالحاضر وليد الماضي ، والأمم تتبع في تطورها سنة النشوء والارتقاء .

وقد التزم أحمد أمين في بحثه أبواباً ثلاثة كان يفصلها عندما تناول الحضارة الإسلامية وما وراءها من عقلية موجهة لها بالكتابة ، وهذه الأبواب الثلاثة هي الناحية الاجتماعية ، ثم العلمية ، ثم الدينية .

وقد امتزجت هذه الأبواب الثلاثة في الكتاب الأول فخر الإسلام ، لأن الحضارة لم تكن قد اتسعت ذلك الاتساع الذي بلغته فيما بعد . ولكنه حين كتب ضحى الإسلام قسمه ثلاثة أقسام أو ثلاثة أجزاء ، وهي المجموعة التي تفصل المائة الأولى من العصر العباسي ، من عام ١٣٢ إلى ٢٣٢ أى إلى خلافة الواثق لأنه كما يقول : « عصر يمتاز بلون علمي خاص ، كما أن له لوناً في السياسة والأدب خاصاً ، امتاز بغلبة العنصر الفارسي ، وبحرية الفكر إلى حد ما ، وبدولة المعتزلة وسلطانهم . وبتلون الأدب من شعر ونثر لونا احتذى على كثر الدهور واختلاف العصور » .

وكذلك ظهر الإسلام ، فالجزء الأول منه يبحث في الحالة الاجتماعية ومراكز الحياة العقلية من عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع الهجري ، والجزء الثاني يبحث في تاريخ العلوم والآداب والفنون في القرن الرابع ، والجزء الثالث الذي طبع بعد وفاته يبحث في الحركات الدينية المختلفة . أما الجزء الخاص بالأندلس من ظهر الإسلام ، فهو جزء على حدة لامتياز الأندلس بحضارة من لون خاص ، وهو يبحث في الحياة العقلية منذ فتح العرب للأندلس حتى خروجهم منه .

وقد تقول أين تعلم أحد أمين الفلسفة ، وعلى أى الأشخاص أخذها وعرفها ؟ الحق أنه علم نفسه بنفسه ، إلى جانب نزوع فطرته إلى محبة الحق وإثبات الحكمة .

وليس الفلسفة شيئاً آخر إلا معرفة الحقيقة لذاتها ، وطلب الحكمة ، مهما تعرض المرء من معوقات تنشأ معظمها عن السير مع الهوى ، والتمسك بالتقاليد . فمذ شروع أحمد أمين في التأليف نرى أنه يترجم كتاب « مبادئ الفلسفة » وهو كتاب صغير الحجم جيد في بابه يلخص معاني الفلسفة حديثاً مع ذكر فروعها المختلفة على وجه الإيجاز . وكان ذلك الكتاب من أوائل ما طبعته « لجنة التأليف والترجمة والنشر » . ثم نراه بعد ذلك يؤلف مع الأستاذ زكي نجيب محمود كتاب « قصة الفلسفة اليونانية » ثم « قصة الفلسفة الحديثة » ، وهو كتاب يستعرض تاريخ الفلسفة منذ أقدم عصورها حتى العصر الحاضر ، وقد ألف كذلك كتاباً منذ نحو ربع قرن مضى في الأخلاق للمدارس الثانوية بسط فيه المذاهب الأخلاقية المختلفة . فهذا الاتجاه في التأليف الفلسفي وفي ترجمة الكتب الفلسفية ينبىء عن نزعة فلسفية أصيلة أشربت بها نفسه منذ عهد بعيد . فليس من الغريب حين يؤلف في العقلية الإسلامية أن يصطنع مناهج الفلاسفة ويتأثر خطاهم في التفكير ، ويطبق المذاهب الحديثة على بحثه في الحضارة الإسلامية ، فطلع بذلك بآراء جديدة هي ثمرة هذه النزعة الفلسفية الأصيلة في نفسه ، ونتيجة اطلاعه على الفلسفات الحديثة والقديمة على حد سواء .

وتقوم هذه الفلسفة التي انتهى إليها على دعائم ثلاث كما ذكرنا هي الدين والعلم والاجتماع . وهي عناصر متكاملة لا غنى لبعضها عن بعضها الآخر . فإذا شئنا أن نعرف حقيقة العقلية الإسلامية ، فلا بد أن نعرف تاج هذه العقلية وهو الدين ، وأدواتها التي تبرز بها وتحقق وهي العلوم المختلفة ، وحياتها بل وروحها وهي المراكز الاجتماعية التي تركزت فيها ونمت وترعرعت . أمّا الفلسفة كأفكار مجردة عن الحياة الاجتماعية ، بعيدة عن الحركة العلمية ، فعبارات جوفاء ماتت على أيدي المدرسين ، ولا تتفق مع نشأة الفلسفة حين كانت نابضة بالحياة زمان سقراط وأيام أفلاطون ، بل تصبح جسداً بلا روح .

فالفكر في نظر أحمد أمين أشبه بالنهر الجارى المتدفق ، الحياة الاجتماعية روافده ، والحركة العلمية مجراه ، والدين مصبه وغايته . ونجد تطبيق هذه الفلسفة واضحة أعظم الموضوع في فجر الإسلام ، ومفصلة في الضحى ، وأشد تفصيلا في ظهر الإسلام .

* * *

وقد اجتمعت له خصال إذا اجتمعت في شخص كان حكيما على الحقيقة ، هى : حرية الفكر ، والبعد عن الدجاطيقية ، والترحيب بالنقد ، والجلاء ، والوضوح ، والعناية بالكل دون الأجزاء ، والبحث عن العلل .

كان أحمد أمين حر الفكر إلى أبعد حدود الحرية ، لا يقول إلا ما يعتقد ، ولا يحفل إلا بالحق وحده ، لا يهجم مصانعة ذوى السلطان ، أو تملق الجماهير ، أو مشايعة الأهواء . وتبدو هذه الحرية في الجهر باعتقاداته الدينية على الرغم من مصادمتها لمشاعر الجمهور ومخالفتها للمألوف من التقاليد الطويلة الأمد . جاهر بالتصاريح المذهبية المعتزلة ، أهل العقل في الإسلام ، ونادى بالرجوع إليه ، مع أن المسلمين عارضوا ذلك المذهب منذ القرن الرابع ، وحكموا على أصحابه بالكفر ، وحرقوا كتبهم ، ومنعوا تدريسها في مدارسهم . وجاهر برأيه في الشيعة ومعتقداتهم حتى كاد يصيبه من جراء ذلك محنة عظيمة حين كان ينفذ بعد أن أصدر فجر الإسلام . فنحن نرى أنه لم يبال بأهل السنة كما لم يبال بالشيعة في سبيل إعلان رأيه وحرية فكره . وهذا هو شأن الفلاسفة . وقد صحبته هذه الحرية في جميع آرائه الأخرى سياسية أو اجتماعية أو أدبية ، كما يتضح من النظر إلى مجموعة مقالاته التي جمعها في كتابه الآخر الحافل « فيض الخاطر » . ومن شاء أن يستقصى مذهبه الفلسفي في الحياة ، فعليه أن يتتبع تلك المقالات .

أما العنصر الثانى المكوّن لفلسفته فهو البعد عن الدجاطيقية . والدجاطيقى

هو الذى يقطع برأيه ، ويجزم به ، ويعتقد فيه اعتقاداً يصرفه عن البصر بأراء غيره . ولا تجتمع فلسفة ودجماطيقية ، لأن الفلسفة هى محبة الحق لا الانتصار للرأى حتى لو كان باطلا . ولم يكن أحمد أمين يقطع بالرأى إلا بعد البحث والتتقيب ، وجمع الأدلة والبراهين ، بل كان على استعداد للنزول عن رأيه إذا اتضح له بطلانه ، أو نبهه إليه ناقد .

وهذا يُسلِّمنا إلى الخصلة الثالثة وهى النقد . والمقصود بالفلسفة النقدية فى الاصطلاح ، خصوصاً بعد كانط ، النظر فى العقل البشرى لمعرفة حدوده ومدى ما يمكن أن يصل إليه . وتقال فلسفة نقدية أيضاً لمن يعدل عن النزعة الدجماطيقية حتى لينتقد نفسه ، كما فعل أفلاطون فى نقده المثل فى محاوره بارميندس . وكان أحمد أمين نقدياً على كلا المعنيين . نظر فى العقل البشرى ، وبين حدوده ، فقال ينتقد المعتزلة والأشاعرة فى آخر جزء من ظهر الإسلام : « والناظر إلى هذا الخلاف [يريد الخلاف على الذات والصفات] يرى أن كلا من المعتزلة والأشعرية جاوزوا حدَّهم ودخلوا فى سفسطات لا طائل تحتها ، وليس العقل البشرى بمستطيع شيئاً من ذلك . إننا لا نستطيع أن نقول بالنسبة لأنفسنا إن كان علمنا غير ذاتنا ، وقدرتنا غير ذاتنا ، أو هى هى ، فكيف نستطيع أن نقول ذلك فى الله ؟ إن عقولنا ضعفية لا تصلح إلا لخدمتنا فى الوصول إلى أغراضنا فى الحياة الواقعية . ومحاولة الوقوف على هذه الموضوعات ليست فى متناول العقل البشرى . إن العقل البشرى لا يستطيع أن يدرك حقيقة أى شىء إدراكاً تاماً ، وكل ما لا يستطيع أن يدركه هو بعض صفاته ... الخ » ظهر الإسلام — ج ٤ — ص ٧٦ .

أما النقد المعروف فقبول أحمد أمين له عقب نشر الطبعة الأولى من فجر الإسلام كان يعد حدثاً خطيراً فى الحياة الأدبية والفكرية فى مصر والشرق ، فلم يسبق لكاتب أن فتح صدر مجلته لنشر النقد مهما يكن لاذعاً كما فعل أحمد أمين فى « الثقافة » . وحين أصدر الطبعة الثانية قال فى المقدمة : « وكان

مالقيته من الباحثين من أهل العربية والمستشرقين أكبر مشجع لى على عملى ،
فقد نقدوه وقرظوه ، وانتفعت بما أبدوه من آراء قيعة فى نقده وتحليله . . . » .
وقال فى مقدمة الجزء الثالث من ظهر الإسلام : « فأقدم الكتاب على هذا النحو
للقرءاء ، راجياً منهم — لا كما يقول السابقون — أن يفضوا الطرف عما فيه من
عيوب ، بل أن يقيدوها ويشرحوها ويبيّنوها لى ، حتى أتدارك ما لا يخلو منه
مؤلف من خطأ . فالحياة العالمية فى كل نوع إنما تحيا بالنقد ، وتتقدم بتمحيص
الآراء ، وإظهار العيوب ، وحسن التوجيه » .

ونحن نعتقد أن هذه النزعة الجديدة أثرت فى الجيل المعاصر أعظم تأثير ،
وسارت بالحياة الفكرية نحو إصابة الحق ، بعد أن كان الكتاب والمفكرون
يفزعون من النقد لضعفهم ، ويسير بعضهم فى موكب بعضهم الآخر مادحين
مقرّظين . . . على حساب الحق .

وخصلة رابعة هى الجلاء والوضوح . وإنما جاء هذا الوضوح من أمرين :
الأول وضوح الرأى فى ذهنه ، والثانى الابتعاد عن التزويق فى اللغة . كان يستطيع
أن يتقعر ، وأن يسجع ، وأن يجرى على أساليب الجاحظ وغيره من المتقدمين ،
ولكنه أثر جلال المعنى على جمال اللفظ ، ورنين الفكرة على جرس العبارة .
ودرج على التعبير البسيط الذى يضرب فى المعنى إلى الصميم دون برقشة وزرقة
حتى يضرب للناس مثلاً فى العناية بالأفكار ، والابتعاد عن الصنعة التقليدية التى
قتلت الفكر وأثقلته بهذه الزينة اللفظية .

وخصلة خامسة هى النظرة الكلية الشاملة بغير أن يفرق فى التفاصيل .
وهذه هى الفلسفة عند بعض المشتغلين بها . يقول ول ديورانت فى كتابه « مباهج
الفلسفة » : « سوف نُعرّف الفلسفة على أنها النظرة الكلية ، والعقل الذى يُبسّط
الحياة ، ويحيل الاضطراب إلى وحدة » . الحق كان أحمد أمين فى كتابته للحياة
العقلية فى الإسلام فيلسوفاً ، لأنه ارتفع إلى هذه النظرة الكلية الشاملة ، وبسّط

تلك الحياة بنظره النافذ ، وأحال ما فيها من اضطراب إلى وحدة ، فلم يعد القارئ العربي يحس بإزاء تاريخه أنه في متاهة لا يعرف كيف يدخل إليها ، وكيف السبيل إلى الخروج منها .

وخصلة أخيرة هي الغوص وراء العلل الصحيحة المؤثرة في مظاهر الدين والاجتماع والأدب واللغة . وهو لا يعرض هذه العلل عرضاً أدبيّاً براقاً ، بل يفصلها تفصيلاً ، وبعد الأسباب ويضع لكل علة رقماً ، مما يدل على وضوح الأفكار وتسلسلها . فعل ذلك عند الكلام على أسباب تدهور اللغة ، وتأخر العلوم ، وركود الفلسفة ، وغير ذلك من المباحث التي تناولها .

* * *

وقد أدت هذه الخصال الفلسفية إلى إعلان نتائج عظيمة الخطر في حياتنا الحاضرة ، تختص بالعقل ، والدين ، واللغة ، والعلم ، والاجتماع ، والأدب .

وجملة ما يريد من هذه الأمور كلها هو اطراح التقاليد الثقيلة المعطلة للتقدم والرقى ، والنظر بحرية فكر في كل ناحية من نواحي الحياة . فلا بد في العقل من تحليله ، ومعرفة حدوده ، وبيان الأصول التي يجرى عليها التفكير المستقيم ، والتزام النزعة الواقعية ، ثم تطبيق هذا العقل على مظاهر الحياة المختلفة ، حتى يجرى السلوك على أساس من العقل .

وقد أعلن فيما يختص بالدين عدة آراء تعد ثورة حقيقية في هذا الميدان ، أولها الرجوع إلى مبادئ المعتزلة أى تفسير الدين بالعقل . والثاني فتح باب الاجتهاد حتى لا نظل عبيداً لأبى حنيفة والشافعى ومالك وابن حنبل ، وقد كانوا ملائمين لزمانهم ، أما اليوم فقد تغيرت الأحوال . والثالث المهادنة بين الشيعة والسنة حتى تتحد كلمة المسلمين ، وخصوصاً أن موضوعات الخلاف بينهما أصبحت في ذمة التاريخ البعيد .

وعلى هذا النحو نادى بإصلاحات اجتماعية ولغوية أترك الحديث عنها لمن يبحث في آرائه من « فيض الخاطر » مقتصرين على الموضوعات التي تعد من جملة الفلسفة ، إذا اعتبرنا الدين وثيق الصلة بها .

ولا نزاع في أن هذه الآراء قد أثمرت في الجيل الحديث نتيجة اطلاع الشباب على كتبه ، والإقبال عليها ، فلا غرابة أن يكون أحمد أمين فيلسوفاً معاصراً موجهاً للشرق الحديث .

أحمد أمين ... الوالد

بقلم الأستاذ

مehol أحمد أمين

إن المكان الضخم الذى شغله أحمد أمين فى حياته ، هو نفسه الفراغ الذى خلفه بموته . إن قلوبنا قد أوحشها فقده ، بقدر ما كان يشغلها حبه ، والكتابة عنه ، وإن كانت تترك ألماً فى نفوسنا ، فإنه من قبيل الألم المحبوب .

* * *

إن أحمد أمين الوالد ، هو نفسه أحمد أمين الأديب والمجاهد والفيلسوف ، ولهذا فإننا — نحن أبنائه — نحفظ له فى قلوبنا — قبل كل شيء — بما قدمه لوطننا ، الذى نحن جزء ضئيل منه .

ولكن أحمد أمين قد خصنا نحن بما لا يقدر على شكره من أجله غيرنا . إن أكبر فضل له علينا ، وسنظل دائماً نذكره له ، أنه احتفظ لنا بحريتنا ، وعلمنا كيف نحافظ عليها . لم نحس قط بأنه يقيدنا ، وإنما كان يتركنا لتقيد أنفسنا بضمائرنا .

وقد أشعرت سياسته هذه كلاً منا بواجبه ؛ وإذ كنا ننظر إليه إذا قصرنا لنبحث عن أثر تقصيرنا فيه ، كان سلوكه ينم عن رد واحد : إن نتيجة تقصيرك عائدة عليك وحدك . وبهذا تعودنا ألا نبحث عن أثر أخطائنا فى عينه هو ، بل عن أثرها فى أعيننا نحن .

كان يحاول دائماً أن يتركنا نصلح أخطاءنا بأنفسنا ، ولهذا لم يكن يتدخل إلا حين يعتقد أن تدخله لم يعد بد منه .

كان يكره الترف لنفسه ولنا ، بل إنه كان بعد أن كبرت سنه ، لا يفكر في أثر الترف عليه هو ، بقدر ما كان يفكر في أثره علينا نحن . إن الأكل والملبس لم يكونا يظفران منه بأية مبالاة ، وكان يجب أن يرى مثل ذلك فينا أيضاً .

قال لنا إنه أجهد نفسه قبل ولادة ابنه الأكبر في محاولة تقرير أفضل الطرق في تربيته ، وأخذ يقرأ كتب التربية وعلم النفس . فلما تمت ولادته كان يبذل عناية فائقة في اختيار أدوات لعبه ، إذ كان يعتقد أنه إذا نجح في أن ينشئ ابنه الأكبر تنشئة سليمة فقد ضمن نجاح الباقيين .

ومع عنايته الشديدة بنا ، كان يعتمد ألا يحقق لنا كل ما نطلبه . كان يحاول أن يعدنا قدر الإمكان لمواجهة الحياة الصعبة من بعده ، وكان يؤلمه أن يعود مثلاً من سفره فيجد أحوالنا قد اضطربت ، وأننا جلسنا ننتظر عودته لإصلاحها . وكان يملأنا غبطة أن نراه بالغ الثقة فينا . لقد كان يفاجئ الناس كلهم ببقته فيهم ، فإذا بمن لم يكن يستحقها قد خار أمامها ، وفعل ما يجدر به أن يفعل .

* * *

ما الذي كان يثير اهتمام أبي ؟ ما الذي كان يجلب له السعادة الحقيقية ؟

إنه في يوم واحد نال الدكتوراه الفخرية ، ونال جائزة الدولة للأدب ، وكان محور الاهتمام والتكريم في حفل ضخم بالجامعة أشيد فيه بآثاره الأدبية وبفضله على الجامعة . ولكن كل هذا لم يبد له أثر عليه ، بل إنه قال لنا بعد عودته إنه في مثل هذه الظروف يشعر بشيء أشبه بالاكتئاب .

ولكننا ألفناه يصبح سعيداً كالشباب عند انتهائه من كتابة مقال أو فصل يظفر بإعجابه . كنا نحس حينئذ بدمه يغلي وقلبه ينبض بالفرح ، وكان سروره بما

كتب أشبه بسرور الأب الفخور بعمل جميل أتاه ابنه ، ولا ينقطع عن الحديث عما كتب حتى يهدأ خفقان قلبه بإفراغه ما فى أعماقه .

ومع هذا يصعب القول بأنه كان سعيداً . لقد كانت حياته هادئة ، وكان استقباله للأحداث حلماً رزينا ، ولكن قليلا من الأشياء كان يستطيع إبهاجه .

* * *

كان يعشق البحر . ما أن يصل معنا إلى المصيف حتى نراه يستنشق نفساً طويلاً بطيئاً ثم يخرج ببطء أيضاً وهو يردد مع خروجه : الله ... الله ... الله ، الأولى طويلة ، ثم تقصر بالتدريج ، ثم ينظر إلينا ، ويطلب إلينا أن نفعل مثل ما فعل .

فإذا شرع فى اختيار حجرته ، كانت هى المطلة على البحر دائماً . ولعل قليلا من يعرف أنه كان بارعا فى السباحة أيضا ، لم ينقطع عنها إلا بعد إصابته بمرضه الأخير . وكان يطيل استلقائه على ظهره فوق الماء ، مغمض العينين ، ويطول انتظارنا نحن لإفافته . إنه هو الذى دربنا جميعا على العوم ، بل هو الذى درب حفيداته أيضاً . وقد ظلت إحداهن ترهبه زمناً طويلاً ، لأنه كان أول من أذاقها ماء البحر .

ومما كان يحمله معه عند عودته إلى المنزل ، مع الكتب والأوراق ، بائة صغيرة من الزهور . وحديثه كانت من الأشياء القليلة التى تبعث فى نفسه السرور ، وكان يطيل الحديث مع بستانيه فيما قطفه من زهور ، وما نما وما لم ينم من أشجار .

* * *

وكان يحب الموسيقى الشرقية الحزينة ، ولم تكن تطربه للموسيقى الغربية . وعلى الرغم من كثرة اشتغاله بالقراءة والتأليف فلم يكن يغفل حبيبنا ، وكثيراً

ما كان ينفق أوقاتاً يلهو معنا لهواً راقياً ، كان يلعب الشطرنج مع جميع أولاده ، وهو الذى علمنا هذه اللعبة . وكان ينتصر علينا فى معظم الأوقات .

* * *

أما السياسة فكانت قليلة الشأن عنده ، لم تكن مهنتها مما يقدره ، ولا مجدها مما يصبو إليه ، ولا حديثها مما يجب أن يطيل فى الاستماع له . ومع ذلك كانت حوادثها — إذا تعلقت ببلده — بالغة الأثر عليه . بل إن والدتى لتقص علينا أن خبراً سياسياً سيئاً كان أحياناً يكدره لبضعة أيام ، ولهذا السبب كنا فى مرضه الأخير نتعمد أن لا يصل إليه ما كان يجرى من أحداث .

وكان يؤمن إيماناً عميقاً بالديمقراطية ، ورأيه أن الاستبداد « يجعل من النفاق سياسة ، والتحایل كياسة ، والدناءة لطفاً ، والنذالة دمانه وظرفاً » .

وكان يكره النفاق ، فإذا عين صديق له فى منصب كبير ، لم يذهب لتهنئته ، ولكنه إذا خرج منه يذهب ليسرى عنه . كان يقول إنه يكون فى حاجة إلى حين يترك المنصب لا حين يليه .

* * *

كان يكره المظهر فى كل شيء ، فكان الأسلوب فى الكتابة قليل الشأن عنده ، وكان يسره ما يقوله له تلاميذه من إنهم لا يستطيعون تلخيص دروسه لشدة تركيزها .

إنه بذل كل حياته للكتابة . لقد كان بإمكانه — لو أراد — أن يعيش أكثر مما عاش ، ولطالما ألحنا عليه ، فى أن يترك عمله وتأليفه ويستريح ، ولكنه كان يقول . إنه يموت كمداً لو قرر أن يستريح . بل إن أعوامه الأخيرة كانت

أحفل أعوامه بالإنتاج فلم يكن يفرغ من كتاب حتى يبدأ فى غيره . ومات وقد خلف وراءه ثلاثة كتب لم تنشر .

وقد أثر فيه كثيرا أن أصبح ضعف عينيه يحول دون أن يقرأ ويكتب كما كان يريد ، واضطره إلى الاستعانة بمن يقرأ ويكتب له . وكان يقول آسفًا إنه كان فى محنته يمسك مرجعًا من المراجع فينقلب صفحاته فلا يلبث أن يعثر على الصفحة فلا يلبث أن يعثر على الصفحة التى يريد فى لحظة ، فإذا به بعد أن ضعف بصره يقضى زمانًا طويلًا يبحث عن الموضوع الذى يفنده ، ولم يكن باستطاعة أحد أن يعينه فى ذلك .



كانت قوته النفسانية عظيمة إلى أعظم الحدود ، فلما مرض فى السنوات الأخيرة أصيب بالآلام نفسية لا حد لها . حرمه ضعف بصره من أن يقرأ ويكتب بنفسه ، وكان ذلك قاسيًا عليه ، وحرمه ضعف جسمه من أن يمارس كثيرا من النشاط الذى اعتاده وكان يجد فيه لذة كبرى له . ثم بدأ فى السنتين الأخيرتين يشعر بالآلام حجة فى صدره . ولكنه كان فى تحمل آلامه كالصخر . وفى الوقت الذى كان يبدو أشد الناس حاجة إلى شخص يسرى عنه كان يفضل أن يبتلع هو ألمه ولا يبديه .

فى شهوره الأخيرة كان يستيقظ عدة مرات أثناء الليل ، وكان فى بادئ الأمر يوقد النور ، فرأى أننا حين نحس باستيقاظه فذهب إليه ، ولا نتركه حتى ينام ، فأصبح إذا استيقظ يظل وحده فى الظلام لكيلا يوقظنا .

وفى ليلته الأخيرة عاودته آلامه وأيقظنا توجعه إوهرعنا إليه ، فكان لا يلبث كل لحظة أن يلح علينا فى أن نذهب نحن لننام وأنه لم يلبث أن يستريح .

كان أبى من هؤلاء القالة الذين يطوون الآلام على أنفسهم ، ولا يشركون
غيرهم فيها .

* * *

لقد أصبح كل شىء فى بيته ، كما فى خارج بيته ، يفتقده . حتى الشجرة
الصغيرة فى حديقته التى كان معنياً به قد ذبلت بعده .

لقد ظفر الموت فى النهاية بمن كتب طويلاً عن الموت والحياة .
ومع هذا فإن كنا جميعاً سواء أمام الموت ، فليس حظنا فى الحياة واحداً .
وقد استطاع أبى أن يتفوق بحياته .

أحمد أمين ... القاضى

بقلم الأستاذ

من مبرل

نشأ المرحوم الدكتور أحمد أمين نشأة تؤهله لأن يكون « علما » لا لأن يكون « قاضيا » . فقد كان والده من رجال العلم والتعليم وقد وصفه عليه رحمة الله فى كتابه « حياتى » فقال إنه كان « يحاسب أولاده على تعلمهم محاسبة عسيرة ، فهو يمتحنهم دائما فى حفظ القرآن وحفظ المتنون ، وفى فهم دروسهم ، فإذا أخطأوا حسبل وحوقل ، وقد يغضب ويضرب ... وكل صحبتنا له كانت صحبة درس جديد أو امتحان فى درس قديم . ولا أذكر أنه مزح معنا ، وقل أن ضحك فى وجوهنا . ولذلك كان اطمئناننا ومرحنا القليل ساعة يغيب عن البيت ، وخوفنا ورهبتنا وجس أنفاسنا ساعة يحضر » .

وقد تقلب الدكتور أحمد أمين فى أيام دراسته الأولى بين مختلف المدارس والمعاهد حتى انتهى إلى مدرسة القضاء الشرعى فآتم دراسته بها ، وتخرج فيها ، ووقف الوقفة الحاسمة التى يقفها كل متخرج بعد إتمام دراسته ليختار طريقه فى الحياة . وكانت دراسته فى تلك المدرسة تؤهله للاشتغال بالتعليم فيها ، أو للعمل فى « القضاء » . فلم يتردد فى الاختيار ، واتجه من فوره إلى البقاء فى معهده الذى تخرج فيه ليعمل مدرسا به . وظل فيه أكثر من عشرة أعوام وهو يقرأ ويؤلف ويبنى أجنحته القوية التى خلق بها فيما بعد فى سماوات العلم والتأليف العلمى — وكان انتقاله إلى « القضاء » بعد هذه الفترة الطويلة التى قضاه فى العلم والتعليم

بمثابة محنة من الحنن التي يصاب بها المؤمنون . وإني أفضل في هذا المقام أن أستعير كلماته التي خطها بيده ليصف الهزة التي عرته على أثر هذا الانتقال . قال : — صدر الأمر بنقلى إلى القضاء فعينت قاضيا في محكمة قويسنا الشرعية . وكان هذا آخر العهد بتدريسى بالمدرسة . وانتهت بذلك مرحلة طويلة هى زهرة العمر تقريبا . . . خمسة عشر عاما من سنى الشباب بين طالب ومدرس نلت فيها أكثر ثقافتى ، وجربت فيها أكثر تجاربى فى الحياة ، وتعلمت ما استطعت من العلم ومن الناس ، ولقيت فيها أكبر الشخصيات التى أثرت فى نفسى ، وطُبعتُ فيها بطابع لازمنى طول حياتى — دخلتها مغمض العينين ليس عندى إلا قليل من التجارب ، وخرجت منها شيئا آخر . لذلك بكيت عليها كما أبكى على فقد أب أو أم أو أخ شقيق . وما آلمنى (وهنا بيت القصيد) أنى تركت التدريس وهو ما أحبه إلى القضاء وهو ما لا أحبه » .

والقضاء فى ذاته مهنة سامية يتنافس فيها المتنافسون ، فهى صناعة من صناعات الله سبحانه وتعالى . وصاحبها موضع التبجيل والتكريم حيثما حل أو أقام . ولا يلمس القاضى فى عمله شيئا من ذلك الضغط التقليدى الذى قد يرزح تحت نيره غيره من أصحاب المهن الأخرى ، فهو يستمتع فى عمله بكامل حريته واستقلاله ، ولا يحس وطأة رقيب عليه اللهم إلا رقابة ضميره ومخافة الله . فإذا قال رجل عاقل إنه لا يجب القضاء ، فعنى ذلك على الأصح أنه يحب شيئا آخر أكثر من حبه للقضاء . وهذا الشيء الآخر الذى كان يحبه الدكتور أحمد أمين هو حياة العلم والتعليم . . . وهو اتصاله الدائم فى تلك البيئة الملمية بهاتيك الشخصيات الكبيرة التى يقول عنها إنها أثرت فى نفسه ، وطبعته بتلك الطوابع البارزة التى لازمته طول حياته . ومثل هذا الكلام يصبح أكثر فهماً ووضوحاً حين يعرف الإنسان

أن الدكتور أحمد أمين عليه رحمه الله كان يشير في كلامه هذا إلى شخصية شخصية عاطف بركات مثلاً — ناظر مدرسة القضاء الشرعى — وأمثال عاطف بركات من أفذاذ الرجال الذين يحلو العيش في كنفهم ، وتطيب الحياة إلى جوارهم ، وترتفع روح الجليس الذى يخاطبهم إلى ذلك المستوى العالى الذى يعيشون هم فيه .

* * *

ومسألة أخرى فيما أعتقد كان لها أثرها أيضاً في ازورار الدكتور أحمد أمين عن مهنة القضاء وعدم ارتياحه لها — وذلك ما عبر عنه هو في « حياته » بقوله : « ظلت في القضاء أربع سنين ... سنة في قويسنا ، وسنة في طوخ ، وستين في محكمة الأزبكية . ومع ذلك فلم استمرى القضاء ولم أسعده به — كل ما أراه أمر قد خربت ، أما الأسرة السعيدة فلا أراها : زوجة تطلب نفقة من زوجها — وزوج يطلب الطاعة من زوجته . فيحكم بالنفقة على الزوج فإن لم يدفع فيحكم بالحبس ... ويحكم بالطاعة على الزوجة ، فإن لم تستسلم نقلت بقوة البوليس إلى بيت زوجها ، — وظلت أحكم بالطاعة وأنا لا أستسيغها ولا أتصورها ... كيف تؤخذ المرأة من بيتها بالبوليس وتوضع في بيت الزوج بالبوليس كذلك ؟ وكيف تكون هذه حياة زوجية ؟ إنى أفهم قوة البوليس في تنفيذ الأمور المادية كرد قطعة أرض إلى صاحبها ، ووضع المحكوم عليه في السجن ، وتنفيذ حكم الإعدام ، ونحو ذلك من الأمور المالية أو الجنائية . أما تنفيذ المعيشة الزوجية بالبوليس فلم أفهمه مطلقاً إلا إذا فهمت حباً يكره أو مودة بالسيف . ولهذا كنت أصدر هذه الأحكام بالتقاليد لا بالضمير ، وبما في السكتب والقوانين واللوائح لا بالقلب ، وكنت أشعر شعور من يمضغ الحصى أو يتجرع الدواء المرير ! » :

* * *

وأنا أقول إن « مضغ الحصى » و « طعم الدواء المرير » لا يعرفه إلا القاضى

المصلح الذى يرجي خيره ، وتلتزم عنده وجوه الإصلاح . فإن أولى بشارات التقدم عدم استساغة الأوضاع القائمة . أما القاضى الذى يستسلم للنصوص فيطبقها تطبيقاً آلياً دون أن يعيش فيها ويستشعر شعور من يطبقها عليهم فهو ليس إلا قفازاً خشناً فى يد القانون ، وليس هو بالآدمى الإنسان الذى يستلهم قضاءه من عدل الله وصفاته على النحو الذى ينبغى أن يكون عليه القاضى الكامل .

فكراهية الدكتور أحمد أمين للقضاء لم يكن معناها أنه قصر فى أداء رسالته كقاض ، ولكن معناها أنه أحس بعبء المهنة قاسياً يثقل ضميره ويقض مضجعه ، وقد يكون رحمه الله رأى أن يؤثر التآرق فى البحث العلمى على معاناة السهر فى حمل هموم الناس وآلامهم . والشأن فى ذلك شأنه وشأن مزاجه الخاص . أما ما يعنيننا نحن من أسرته فإنه على أية حال لم يكن يؤثر النوم والراحة وحياة التحول . ولئن كان أحمد أمين القاضى قضى سنواته الأربع فى خدمة القضاء وهو على مضض فإن سعاداء الحظ من المتقاضين هم الذين نعموا بجلسه على كرسى القضاء طوال هذه الفترة . وإلا فمن كان للزوج المقل بمن يرحمه من زوجته العنيدة ، ويحميه من كيدها المبيت وهى لا تطالبه بالنفقة إلا رغبة منها فى إذلاله وإعناته — ومن للزوجة المستضعفة بمن يدفع عنها بطش زوجها المستبد الذى لا يطلبها للطاعة إلا لجدع أنفها وتبريع خديها فى التراب ؟ إن أحكام أحمد أمين — القاضى — لم تنشر ، ولكننا نحن عرفنا منها الكثير أثناء أحاديثنا ونجوانا ، ولحنا فيها مخايل الاجتهاد الذى لا يعرف الجود ، والذى يؤمن بأن الأحكام تتغير بتغير الظروف ، والذى يشمل كل شيء حتى تقييد النص ووقف العمل به . وإنه ليتأسى فى ذلك بعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان يروى لنا عنه أنه مثلاً لم يرد أن يعطى المؤلفه قلوبهم من الزكاة لأنه أدار الحكم على العلة وجوداً وعدمها ، فلما لم يكن الإسلام فى حاجة إلى تأليف القلوب لكثرة من دخل فى الدين الاسلامى ، وقف إعطاءهم

الزكاة . وكما حد المسلم حد الشرب ورآه بعد ذلك قد تنصر والتحق بالقسطنطينية ،
آلى على نفسه أن لا يحد مسلما بعد ذلك . وسرق مسلم بن مُزَيْنَة فى أيام
الجماعة ، فأمر بحده ثم أمر برده ، وألزم قبيلته أن تدفع ثمن الفاقة وقال : إنكم
أجمعتموهم فسرقوا ... إلى كثير من أمثال ذلك .

* * *

أما بعد . فلقد أرقنا نحن كما أرق من قبلنا القاضى أحمد أمين ، وكان سبب
تأريقنا ما كنا نحسه من أثر سبى للعقوبات التى يفرضها القانون على الجناة من
غير تمييز بينهم . فالسارق فى نظر القانون لص يستحق العقاب سواء أكان قد سرق
رغيفا ليطمع صغاره أو كان قد ابتز أموال المحتاجين لينفقها هو عن سعة فى اليسر وفى
المواخير . فجعلنا نطبق أحكام القانون على الفريقين ونصيح فى الوقت نفسه مطالبين
بالإصلاح حتى انتهينا إلى ما انتهينا إليه اليوم من إثارة وعى المشرع لأمثال هذه
المفارقات . ومن هنا صدرت التشريعات الإصلاحية تترى . وأصبح من الممكن
اليوم وقف تنفيذ عقوبة الغرامة بعد أن كانت الغرامة تنفذ ولو بالإكراه المدنى
حتى على من لا يستطيع أداها . كما أصبح من الممكن وقف تنفيذ الحكم الصادر فى
الجناية بعد أن كان لا يوقف إلا تنفيذ الأحكام التى تصدر فى قضايا الجح ، وأخيرا
جاءت التشريعات الحديثة التى تعمل على إسقاط السابقة الأولى من صحيفة الجانى
حتى لا تقفل فى وجهه أبواب المستقبل بسبب سقطة عابرة أو زلة ورطته فيها الظروف
ولولم نكن قد « مضغنا الحصى » ونحن نطبق العقوبات الأولى على مضض لبقيت
تلك المظالم القائمة إلى اليوم يتجرع مرارتها أناس تنسهم (الرحمة) أكثر مما
ينفعهم (القانون) .

* * *

رحم الله أحمد أمين القاضى المصلح عداد نواياه الطيبة ومساغيه الجميلة ، وسلكه
عنده فى زمرة الأخيار وصفوة الأطهار الأبرار .

طيف الزمان

بقلم الدكتور

زكي الطحطاوي

يا صورة الخلد مَنْ أبدك في الخلد
سحر البيان أم الطمّاح للأبد
مثلت وجهك بالأنوار طافرة
من كوكب بمزايا الفكر منفرد
ذاب الفناء على أطراف دولته
ولفّ العدم الأصداء بالنقد
الموت أهكومة مرت مذاقها
يكرّر الدهر بلواها على الأمد
لولا تناغم أرواح مدوّمة
ترفّ بالصبح مثل الطائر الفرد
تطيف بالعقريات التي غربت
عنا لتطلع في آفاقها الجدد
لضاع وجدّ قلوب من شقاوتها
في عالم ضجّ بالعدوان والحسد
(أمين) ياروعة التاريخ في رجل
كأنه أمة مواجهة العدد

تصنّف الرأى فى الآداب حكْمُه
وتجمع النصّ من أَرْجَائِهِ البِيدِ
من فَبَجَرِ إِسْلَامِهِ شَعَّتْ منارَتُهُ
ومن ضُحَاهِ أَتَاهُ الحَقُّ بِالْأَيْدِ
تَقُولُ آثارُهُ لله ما صَنَعْتَ
أَقْلَامُهُ فى لِيالى الدّأبِ والجلدِ
لم يُعْنِ فى زُخْرُفٍ باللفظ مَطْلَعُهُ
فصان تعبيرِهِ عن لُغْبَةِ الفَنِّ
إِسْتَبَحَ بِأفكارِهِ من غَيْرِ ما غَرِقَ
وَأَسْعَدَ بِكُتُبِ رِعاها الصّدقُ بالسَّنَدِ
أَعْلَمُ جامِعَةٍ أَبْقَى (الأمين) لَنَا
أَمْ مَكْتَباتُ جِلالِها اليَوْمُ رَهْنٌ غَدِ
ما صَوْرَةُ الجِسمِ إِنْ زالتْ معالِمُهُ
وَأَيْنَ أُنْدُبُ أَطْلالٍ من الجِسمِ
كانَ الحِجْءُ إلى الدّنيا ضَلالَ هَوًى
فلا تَضَلُّ أَخا العِلياءِ عَنِ ارْتِشَادِ
نَرضى زِيادَةَ يَوْمٍ من أَحَبَّتنا
فيا حَيِّبُ بَعْدُ مِنْكَ لا تَعِدْ
هذا الخيالُ وراءَ النَفْسِ يَغْمُرُنِي
فَكيفَ أَطْلُقُهُ مِنْ سِرٍّ مُلْتَجِدِ

ماحقَّ فيك زوالُ جَفٍّ مدمُّهُ
وكمْ عَزَاءٌ بلا معنَى ولا صَدَدِ
قل لى — وتسمَعُ من خلفِ الغيوبِ لُغَى —
ماذا ترى من فراديسٍ ومِنْ بَلَدِ
أجلِسْ لك فى الأرواحِ تعقُّدُهُ
على حديثٍ صفا أو بحثٍ متقدِّ
أدِرْ بسُبْحَةِ طيبِ الحوارِ فما
فيضُ الخواطرِ إلا منك طوعَ يدِ
يا (أحمدَ) الصُّنْعُ ذكراك التى انبعثت
حداً لمسـعاك أو وجداً على الكبدِ
عزَّتْ بهـمـا مصر فى تشييدِ نهضتها
كشُغْلَةٍ منك للأجيالِ والوَلَدِ

أحمد أمين... الجامعي

بقلم الدكتور

سوفي ضيف

كان أحمد أمين قُدوةً مُثَلًى لتلاميذه في الجامعة من الناحيتين الخلقية والعلمية ، أما من الناحية الخلقية فكان بارًّا بهم ، يخص كل واحد منهم بقسط من عنايته واهتمامه ، في وفاء أصيل وتواضع جميل ، فلا تعالى ولا كبرياء ، وإنما القرب والألفة وشفقة الوالد على أبنائه .

فكنا منذ تعرفنا عليه نشعر أننا لسنا في بيئة غريبة عنا ، بل نحن معه نؤلف أسرة قوامها التعاون على الخير ، وأساسها التعاطف الكامل الذي يوحد بين الأساتذة وتلاميذهم ، فإذا هم ينفذون وجهة واحدة من البحث العلمي الخالص لوجه الوطن ووجه الحق .

وأشربَ قلبُ أحمد أمين محبةَ الحق كما أشربَ محبةَ الحرية منذ شبابه الأول ، فقد تعود أن يقول الحق في صراحة وحرية غير مفتعلة ، وكان له في ذلك مواقف معروفة ، وظل حتى آخر حياته لا يقول إلا ما يؤمن به إيمانًا عميقًا في ذات نفسه .

وليس معنى ذلك أنه كان يتعبد للآراء التي يصل إليها ، بل كان يُمرّتنا على خلافه وأن نرى الرأي مناقضًا لرأيه ، يريد بذلك أن تكون لنا أصالتنا في الفهم والحكم ، لا مجرد الجدل والمناقشة في غير طائل .

وكان كل ما يحكم به أن ترفع الحواجز بين الطلاب في الجامعة وأساتذتهم وأن لا يكتفوا بما يدون في المحاضرات ، بل يتحولوا إلى الأروقة وحُجَر البحث

يتجادلون ويتحاورون ، لا فرق بين كبير وصغير ولا شيخ ولا شاب إلا بمقدار التجربة والسبق إلى معرفة الحقيقة ، فإذا أثبت شاب أن عنده دقة في الفهم وأنه يحسن تصور المسائل والحكم عليها كان أول من يشدّ على يديه .

كنا نلتفّ حوله ونبادره بالأسئلة ومناقشة آرائه ، وكثيراً ما كنا نخالفه ، فلا يتبرم ولا يضيق بنا ، يقبل علينا ، ويشجعنا أن نمضي في خلافه ، وأن نبسط رأينا بكل دقائمه ، وبكل ما يسنده من أدلة وبراهين ، فإذا تبين له أنه على خطأ أعلن عن رضا أنه أخطأ وأن الحق في جانب الطالب ، وأنه يشكره ويثنى عليه . ولهذا الروح العادلة فيه كنا نحبه ، ونخلص له . ويظهر أنه كان لحياته الأولى في القضاء أثر واسع في هذه العدالة ، فقد انتقل إلى التدريس في الجامعة ، ولكن ظل مُسَكِّكاً بموازين العدل في آرائه وما ينثره من أحكامه ، فلا هوّى ولا تحيز ولا تعصب .

وكان يعجب لمن يتعصبون لآرائهم أو يتحيزون ، فالعلم في رأيه لا يعرف التحيز والتعصب ، بل هما عدواه اللدودان ، فمن تعود أن يمحلهما كان حريابه أن لا يجمع بينهما وبين العلم لا في عقله ولا في صدره . وكان يقول فيم تتعصب وقد خلقنا الله أحرارا ، كأنه كان يعتقد أن التعصب ضرب من ضروب العبودية يخالف معاني الإنسانية ومثلها الرفيعة .

ومن أشد ما كان يحرص عليه غرس المثالية الخلقية في نفوس تلاميذه ، فسكان يقول إن العلم بدون خلق ليس شيئاً مذكورا ، وكان ما يزال يعود طلابه أن يغاروا على الفضيلة وينفروا من الرذيلة ومن كل عمل مستهجن يشين صاحبه . وكان كل همّه أن يخلق منا باحثين ، وكان لا يدخر جهداً في غايته من ذلك ، فهو ينوه تارة بمن يقدمون بعض البحوث ، وتارة يسعى إلى نشرها في المجلات والصحف ، وكان إذا قرأ لأحدنا مقالا في موضوع أدبي أشاد به بين

إخوانه ، ودعاهم إلى أن يحذوا حذوه . وقلما اشتهر أحد خريجي قسم اللغة العربية في صحافة وغير صحافة إلا كان لأحد أمين فضل تشجيعه واستغلال ملكاته .

وكان يدرس لنا الحياة العقلية ونشأتها عند العرب وتطورها في العصرين الأموي والعباسي ، فيحلل عناصرها تحليلًا دقيقًا ، ويردها إلى أصولها العربية والأجنبية من فارسية ويونانية وهندية . وما زال يسلط أشعة عقله وبخنه على هذه الحياة حتى استنارت لنا من جميع جوانبها ، وإذا الذي كنا نظنه شيئًا عسير الفهم بعيداً عن عقولنا وتفكيرنا من فقه وحديث وألوان ثقافات مختلفة قد أصبح دانيًا منا مألوفًا لنا ، وأصبحنا نتمثله ، بل تدخلنا في فهمه والحكم عليه وعلى أصحابه .

ولم يكن يسوق آراءه في هذه الحياة منبئة الصلة بآراء من سبقوه ، بل كان يعتمد إلى هذه الآراء في مظانها العربية والغربية فيقرؤها ويعرضها علينا عرضًا واضحًا ، وما يزال يناقشها حتى يستخرج لنفسه رأيًا جديدًا يستمدده عن نظرة عادلة حقة . وكان إذا انتهى إلى رأي معين أصبح يؤمن به ، ولم يعد يخاف فيه من مخالفونه ، بل يعلنه قاطعًا صريحًا فلا حياء ولا مواربة في العلم .

وقد غضب الشيعة حين عرض للتشيع في كتبه ، وخاصة في فجر الإسلام ، وحلوا عليه حملات شعواء ، ولكنه كان يلتقاها بصدر رحب ، ولم تستطع هذه الحملات أن تغير رأيه ، بل ظل حتى آخر حياته يعتقد أنه لم يتجنّ عليهم ، وقد عاد إلى الكتابة آخر حياته عن التشيع والمهدى والمهدوية ، فلم يعدل عن آرائه القديمة ، إذ اعتقد فيها أنها الحق ، فلم يعد يخشى لومة لائم .

وهو كذلك في الكتابة عن أهل السنة ، كان ينقدم نقداً عادلاً ، فكان يأخذ عليهم أنهم لم يوسعوا آفاق فكرهم بل ظلوا به محصوراً في آماذ محدودة من المحافظة ، بينما كان يعجب بالمعتزلة وعقلهم الحر الذي حكموه في الأشياء وفي الأشخاص وفي أصول الدين والعقيدة .

ولم يكن في كل هذا يتعنت أو يخرج عن حده الطبيعي ، بل كان مع مخالفته

لبعض الفرق الإسلامية في آرائها ونقدها يعطف عليها ويتمنى لو لم تكن هذه الفرقة في الإسلام ، ويود لو أنها تقاربت ، ولم تقف كل منها بعيدة عن صاحبها ، فالؤمنون إخوة ، وحرى بهم أن يتعاونوا ، وأن لا يسود بينهم خلاف بأى وجه من الوجوه ، حتى لا يضعفوا أمام خصومهم الحقيقيين من الأوربيين المستعمرين . وعلى هذا النحو كان له في أبحاثه الجامعية أسلوب واضح وأهداف واضحة ، وكان كل ما يهيمه أن يخرج منا علماء قادرين على البحث المتشد المنظم . وكان دائماً يوصينا أن نتعرف كل منا على طبيعته وما يجب أن يعمل في غده ويتخصص فيه ، ويُعدّ نفسه لذلك منذ تلمذته حتى لا تفوته فرصة الوقت . وكثيراً ما كان ينصحنا أن نهتم بطريقة الجذاذات وأن نتعود جمع المعلومات ، فإذا قرأنا كتاباً قديماً أو حديثاً قيّداً أهم ما فيه من مسائل ، حتى إذا احتجنا لها في المستقبل لم نضطر إلى قراءة الكتاب كله ، وخاصة الكتب القديمة لأنها غير مفهومة ، وكثير منها غير مبوّب . وكان يقول ليتنى عرفت في مطلع شبّابى أننى سأهتم بدرس الحياة العقلية عند العرب إذن لكان على الطريق .

وكان من أشد ما يكرهه المناقشة اللفظية غير المجدية وما ينطوى فيها من مغالطات ، وكان يقول لنا إن هذه طريقة قد بليت ، وحلّت محلها طريقة عقلية أخرى ، هي طريقة التحليل والاستقراء ؛ أما الوقوف عند الألفاظ فإنها لا تفيد شيئاً سوى ضياع الوقت ، إن كان هذا مما يعد فائدة . وماذا تفيد من تحقيق هذه الكلمة أو تلك وربما كان كل ما تؤديه هي وأخواتها لونا من ألوان الغلط في الفكر . إن المهم ليس الكلمة وتحقيقها ، إنما المهم الموضوع وتشقيق معانيه ومعرفة خطوطه الأساسية والفرعية . ولقد أسرف القدماء في بحث الكلمات والألفاظ كما ترون في حواشى علوم النحو والبلاغة ، وما أفاده الأدب من ذلك قليل ، بل لقد انفصلت هذه الأبحاث عن الأدب ، لأنها دارت في مجالات لفظية لا قيمة لها ولا غناء فيها . فإياكم أن تعودوا بنا إليها وأن تظنوا أنكم بهذا التشدد قد أحسّتم شيئاً ، بل

على العكس تكونون قد انصرفتم عن واجبكم وعن مشا كلكم الذهنية الحقيقية إلى مشا كل لفظية فارغة . وبدلا من أن تضيعوا أوقاتكم في تحقيق كلمة أو لفظة ضيعوها ، بل اكسبوها واربحوها في تحقيق كتاب ، بمعنى أن تلخصوه في مقال أو مقالين ، وحذا لو عرفتم ما فات صاحبه ، ولكن لا لتقرّعه ، بل لتنبهوه ، فيكفيه فضلا أنه السابق ، وما كان لسابق أن يمنع لاحقا من الزيادة عليه أو من نقده في موضع النقد الصحيح .

وأقرّها منصفًا إن أحمد أمين كان مثلا ممتازا للجامعي العالم الذي يستهدف الحقيقة في أبحاثه ، كما يستهدف تعليم استنباطها للتلاميذ . وكان يضرب لهم خير الأمثلة في دراسته للحياة العقلية العربية ، فهو يبحث بحثا هادئا متزنا في طبقات هذا العقل ويردها إلى مكوثاتها وجزئياتها ؛ بل ذراتها المختلفة ، ويتعقبها في أصولها منذ الجاهلية وفروعها وما رسب عليها في الإسلام .

وليس البحث مجرد كلام أو تهويلات أو طنين ورنين ، بل البحث نصوص ودأب في الحصول على النصوص من بطون الكتب القديمة وذخائر العقل العربي ، ثم مقابلة واسعة لهذه النصوص ، وتحليل بارع لها في مخاير العقل ، وتسجيل لهذا التحليل في نزاهة وإنصاف .

وكان من أهم ما يروعنا عنده كثرة اطلاعه ، فقد تحولت عنده القراءة إلى هواية يجد فيها كل ما تشتهي نفسه وتقرّ به عينه ، وكأنها أصبحت نزهة ، ويلذه أن يقطع هذه النزّهات ، ثم يقص على طلابه وقرائه ما رآه فيها بدون تحيز وبدون محاولة لاغتساف رأى ، بل مع التواضع الشديد .

ومن الناس من يحدثون ضجيجا هائلا حين يصلون إلى فكرة جديدة أو يكتشفون معنى جديدا ، وم وصل أحمد أمين إلى فكر ومعان ، بل إلى أبحاث تامة ، بل لقد أنار عوالم كاملة من حياة العرب العقلية في عصورهم المختلفة ، ومع

ذلك لم يهول على الناس ولم يحدث جلبه ولا قرقة ، بل كان مثال العالم الحق الذى ينكر نفسه ويترك للناس أن يكتشفوه ويعرفوه .

ويدرس أحمد أمين البلاغة العربية ، فيراها قاصرة عن أن تحيط بقواعد الأدب الحديث الذى يستمد أعلامه من الغرب وآثاره ، فرأى أن يقرأ البلاغة الغربية والنقد الغربى ، ليفصل لبلاغتنا ثوبا جديدا لا يضيق بأدبنا الحديث ولا يقصر عن أن يحيط به .

وكان كلما درس فى الأدب موضوعا ورأى له نظيرا عند الغربيين قرنه به ، فإذا درس الطبيعة عند شعراء العرب قرنها بالطبيعة عند أصحاب المزرع المعروف بالرومانسية الذى شاع فى أوربا أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر . وهكذا كان لا يزال يتعب نفسه ، ولا يزال يطلب المثل الأعلى فى الدرس ، وكلما اجتاز عقبة فُكر فى اجتياز أخرى ، حتى إذا هانت له واجتازها تحول إلى عقبة جديدة دون أن يكمل أو يمل .

وهو فى كل ما حاول من بحث لم يكن يزعم أنه وصل إلى الكلمة الأخيرة ، بل كان يردد أنه يقول الكلمة الأولى ، ولغيره أن يقول من بعده كلماته ، فالأبحاث أبوابها مفتوحة ، ومن شأنها أن تظل مفتوحة دائما ، ليلقى كل باحث بآرائه وأفكاره وما انتهى إليه .

ولعل فى هذا كله ما يوضح كيف كان أحمد أمين مثالا كريما للأستاذ الجامعى فى خلقه وعلمه ، وهو مثل يقوم على الإيثار ومحبة الخير والحق ، وأن يكون الإنسان منصفًا لنفسه ولغيره من الناس ، وأن يكون متواضعا متواضعا أصيلا فى ذاته وفى بحثه ، لا تأخذه عزة العلم بغرور ولا إثم .

أحمد أمين ... العالم

بقلم الدكتور

طه حسين

رأى ضحى ذلك اليوم غارقا مع أحد الأصدقاء فى كتاب قديم من كتب الأدب العربى نهيبه للنشر ، وكنا مقبلين عليه أشد الإقبال حتى صرفنا عن كل شىء وعن كل إنسان وحتى كدنا نصبح نصا من هذه النصوص القديمة الرائعة التى كنا نقرأها ونقومها ، وكانت تبلغ قلوبنا فتملكها وتبلغ عقولنا فتبهرها . وكان أبغض شىء إلينا فى ذلك الضحى أن يقطع علينا ما نحن فيه زائر مفاجئ أو حديث يحمل التليفون .

وقد أبى الله إلا أن يمتحننا من ذلك بما نكره ، فهذا التليفون يصلصل ، وليس بد من الرد عليه ، ولكن الرد عليه يحمل إلينا أبغض الأنباء موقعا من آذنا وأثقلها على قلوبنا . . . فهو ينعى إلينا صديقا حميما وزميلا كريما وأخا طالما نعمنا بما كان إخاؤه يمتعنا به من الأنس والبشر فى أيام الشدة .

وكنت أعلم أن هذا الأخ الكريم مريض ، ولكنى كنت أعلم أنه كان أقوى من مرضه ، فكان يكابره أشد المكابرة ، ويعاند آلامه أعظم العناد لا يذعن له إلا ريثما يشور به ؛ ولا يستجيب لدعاء الطبيب إلى الراحة إلا ريثما يخالف عن أمر الطبيب ويلقى بنفسه إلى الجدد والكد والعناء .

كانت حياته كلها مغالبة لم تستقم له الأمور على ما أحب فى يوم من الأيام منذ كان صبيا يختلف إلى الكتاب حتى أصبح شيخا يختلف إلى مجالس الزملاء والأصدقاء فى الجمع اللغوى ، وفى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وكانت أحكامه

على أموره كأحكام غيره من الناس تخطيء وتصيب ، ولكنها كانت تتفق دائماً على شيء واحد وهو أنها كانت تصور له الأمور على غير ما يجب أن تكون وتدفعه إلى الجهاد والمقاومة والمغالبة ، فكانت حياته نشاطاً متصلاً وصراعاً غير منقطع ، وكان أثقل شيء عليه وأبغض شيء إليه فيما علمت منه وفيما سمعت عنه أن لا يجد في نفسه القدرة على النشاط ، والصراع ، والمغالبة ، وأن تعوزه الأدوات التي تتيح له ما كان يجب من النشاط والصراع والمغالبة .

كان يريد أن يغير الدنيا من حوله . وليس تغير الدنيا ميسراً للناس جميعاً ولكنه كان يريد أن يحاول من ذلك ما يستطيع ، فيستقيم له التغير في بيئته الخاصة وفي بيئته الجامعية بعض الشيء ، ويستعصى عليه في بيئات كثيرة كل الاستعصاء فيسعد قليلاً ، ويشقى كثيراً ، فكنت تراه دائماً قليل الرضى كثير السخط ، موزع النفس بين سرور قليل متقطع وحزن كثير يوشك أن يكون متصلاً حتى أنكر من نفسه كثيراً من أمره ، وحتى أنكر الناس منه كثيراً من أمره أيضاً ، وحتى نظر إليه زملاؤه وأصدقاؤه نظرة فيها كثير من الحفظ والاحتياط ، فكانوا يتحدثون إليه مشفقين من ثورته ، أو متوقعين لثورته . وكانوا يتكلفون من الرفق به أكثر مما كانوا يتكلفون حين كانوا يتحدثون إلى غيره من الأصدقاء . وربما تندر به زملاؤه وأصدقاؤه وداعبوه في شيء كثير من الحب والرفق فسموه « العدل » ونادوه بهذا الاسم وتحدثوا عنه بذلك فأكثروا الحديث ، حتى كاد العدل يصبح له اسماً ثانياً . ولم يكن لهذا كله مصدر غير تخرجه المتصل وتحفظه المقيم وتعرضه لالتماس الصعب من الأمر وتجنبه ما كان من الأمر يسيراً قريباً .

وما أشك في أن موقع نعيه من نفوس الذين عرفوه من قرب أو من بعد قد كان موقع الخطب المفزع الممض ؛ ولكن الشيء الذي أشك فيه وأرجو كل الرجاء أن أكون مخطئاً في هذا الشك هو موقع هذا النعي من نفوس الكثرة من

المتقنين الذين ألقوا اليسر في هذه الأيام وكرهوا كل ما يكلفهم مشقة أو يعرضهم
لشيء من العسر .

والأحداث تجري في هذه الأيام كثيرة مختلفة متباينة ، يتبع بعضها بعضاً في
سرعة سريعة ، والناس يقرأون أنباءها مسرعين ويتأثرون بها مسرعين أيضاً ، حتى
أصبح بعضها وكأنه ينسخ بعضاً ، وحتى أصبحت القلوب والعقول والضائير وكأنها
الصخور الملس تنزلق عنها الأحداث الخفاف والنقال والخطوب النحاف والغلاظ
دون أن تترك فيها أثراً .

ومع ذلك فقد كان نعي أحمد أمين خطباً مزججاً مفرعاً مسروعاً بأوسع وأدق
ما تحتل هذه الكلمات من المعاني ؛ وأنا أعلم كما يعلم غيري من الناس أن الموت
حق ، وأنه ورد مورد لا يستطيع أحد أن ينصرف عنه ولا تستطيع أحداث الدنيا
أن تنصرف عنه أحداً

وأعلم كذلك أن المنايا خبط عشواء كما كان زهير يقول في بيته المعروف ، وأعلم
أنها إذا نشبت أظفارها لم تنفع التأمم ولا الرقي ، كما كان أبو ذؤيب يقول في بيته
المعروف أيضاً .

أعلم هذا كله كما يعلمه الناس جميعاً ، وأعلم كذلك أن إيماننا بهذا كله
لم نستطع ولن نستطيع أن يذود عنا الحزن والأسى ، أو ينصرف عن قلوبنا اللوعة
والحرقة والحسرات حين نفجع في عزيز علينا أو أثير عندنا .

فالقلوب تأسى والعيون تدمع والنفوس تغرقها اللوعة ، والإيمان بالقضاء مع
ذلك موفور ، والإذعان لأمر الله مستقر .

وإنما الشيء الذي قد لا يحققه كثير من الناس هو أن المحنة في أحد أمين
ليست مقصورة على أسرته وبنيه وأصدقائه الأدينين ، وإنما هي محنة تتجاوز هؤلاء
جميعاً إلى وطنه كله .

بل أقول غير غال ولا متكلف أنها تتجاوز هذا الوطن المصرى إلى العالم العربى والإسلامى كله .

وأقول كذلك غير غال ولا متكلف أنها تتجاوز هذا العالم العربى الإسلامى إلى البيئات الأجنبية التى تعنى بالدراسات العربية والإسلامية فى أوروبا وأمريكا . فلم يكن أحمد أمين فرداً من الأفراد الناهيين فى مصر فحسب ، وإنما كان أحمد أمين مجداً مؤثلاً لوطنه ، وكان علماً مؤثراً أعمق التأثير وأبعده فى حياة هذا الوطن ؛ وفى البيئات التى تعنى بالدراسات العربية الإسلامية فى جميع أقطار الأرض .

وحياة أحمد أمين قصة من أعظم القصص الحية روعة وأعما تأثيراً ومن أعظمها حظاً من البراعة

وانظر إلى هذا الصبى الذى نشأ فى أسرة متواضعة من الأسر المصرية وفى حى متواضع من أحياء القاهرة ؛ وينشأ نشأة كأشد ما يكون تنشئ الشباب تواضعاً فيدرس فى المدرسة المدنية ثم يتحول عنها إلى الأزهر ثم يتحول إلى مدرسة القضاء ثم يصبح قاضياً تتقاذفه المحاكم الشرعية فى أرجاء مصر ثم يعود مدرساً فى مدرسة القضاء ثم يرد بعد ذلك إلى القضاء الشرعى ؛ وهو فى أثناء هذا كله قلق لا يعرف اطمئناناً ولا استقراراً ، لأنه يجهل نفسه ويحاول أن يعرفها فلا تنهياً له هذه المعرفة كما يريد ، هو يلمس نفسه فى كتب الفقه وفى علوم الدين كلها فلا يجدها ، ويلتمس نفسه فى الأدب العربى وفى اللغة العربية فلا يجدها ؛ ويلتمس نفسه فيما كان عاطف بركات رحمه الله يلقى على طلابه فى مدرسة القضاء من دروس الأخلاق وفلسفتها على نحو ما كان الإنجليز يدرسون الأخلاق ويفلسفونها ، فلا يجدها ؛ ثم هو يلمس نفسه فى حياته فلا يجدها فى القضاء الشرعى ولا يجدها فى ذلك التعليم المحدود ، ذى الآفاق الضيقة الذى كان يلقى فى مدرسة القضاء . هو يبحث عن نفسه ، ويعلم أنها قريبة منه يوشك أن يلمسها أن يمد إليها يده ؛

ولكنه يمد إليها يده مرة ومرة فلا يجدها ولا يلمسها إنما يحس أنها بعيدة عنه
أشد البعد .

وهو يحاول أن يخرج من حياته تلك التي أضل فيها نفسه فيتصل ببيئات
المطر بشين وينشئ معهم لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ويأخذ في تعلم اللغة الإنجليزية ويخيل إليه أن الأمد بينه وبين نفسه قد أصبح
قريباً ، ولكنه على ذلك يلمسها فلا يظفر بها .

وألقاه في يوم من أيام حيرته تلك ، وقد زارني حين أخذ المساء يدنو ويدنو
معه هذا الحزن الذي تعرفه النفوس الحية في الأصيل .

ولا أكاد أتحدث اليوم حتى أحس منه حزناً كهذا الحزن الذي كنت
أحسه من ذلك الأصيل الذي كان يظلمنا في مجلسنا ذاك في شارع رمسيس
بمصر الجديدة .

وإذا هو ضيق بعماله في القضاء أشد الضيق . وإذا هو طامح إلى شيء مجهول
لا يحققه ولكن طموحه إليه شديد .

كل ما يعنيه هو أن يخرج من حياته تلك التي لا يستطيع عليها صبراً .
ونفترق في ذلك اليوم وقد أزمعت في نفسي أمراً ، فإذا كان الغد تحدثت
بما في نفسي إلى أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد ، فإذا كان المساء دعوت أحمد
إلى لقائي ، وعرضت عليه التعليم في الجامعة فيشك غير طويل ثم يستجيب .

ولا يكاد يستقر في كلية الآداب شهراً و بعض شهر حتى يجد نفسه تلك التي
طال البحث عنها وشق بالتماسها أعواماً طوالاً .

وانظر إلى آثاره العلمية التي دفعته الجامعة إلى إنشائها فسترى نفس أحمد
أمين واضحة كأقوى ما يكون الوضوح ، وسترى شخصيته ماثلة قوية تفرض
نفسها فرضاً .

كانت نفسه إذن ضائعة منه في كلية الآداب ، ولم يكن له بد من أن يلتصقها في هذه الكلية شأنه في ذلك كشأن ذلك البطل الذي عرفناه أيام الصبي في أحاديث العجائز ، ذلك الذي كان يكلف من الغايات فيذهب في التماسها كل مذهب ويركب في طلابها كل مركب ، ويتعرض للأخطار الجسام ، والأهوال العظام ويمتحن بقاء الغول بعد الغول ثم يظفر آخر الأمر بما كان ويصبح رجلاً سعيداً كأحسن ما تكون السعادة موفور الخط من نعمة العين ورضاء البال .

وقد وصل أحمد أمين إلى غايته ووجد نفسه في الحياة العقلية الإسلامية فألف فيها فجر الإسلام وضحى الإسلام وأهدى بهذه الكتب إلى العالم الحديث بتاريخ العقل الاسلامي كنزاً من أقوم الكنوز وأعظمها حظاً من الغنى وأقدرها على البقاء ومطاوله الزمان والأصراح .

فلأول مرة في التاريخ الاسلامي عرض تطور الحياة العقلية للمسلمين في القرون الثلاثة الأولى عرضاً دقيقاً صحيحاً صادقاً ملائماً للعقل الحديث . وكذلك استطاع ذلك الشيخ القديم الذي لم يجد نفسه في الأزهر ولا في مدرسة القضاء ولا في الأعمال المختلفة التي تقلب فيها والذي كان شيخاً ضائعاً بين شيوخ ضائعين أن يفرض نفسه على الحياة العلمية فرضاً وأن يظفر بإعجاب المواطنين والأجانب من العلماء ، وأن يصبح ثقة في تاريخ الثقافة الإسلامية ، لا بالقياس إلى تلاميذه وزملائه في مصر والعالم العربي ، بل بالقياس إلى كل من يعنون بهذا النحو من أنحاء العلم في أقطار الأرض كلها .

ومصدر هذا أن ذلك الشيخ الذي كان ضائعاً لم يكن كغيره من الشيوخ الضائعين . وإنما كانت في نفسه جذوة خفية قد تكاثرت عليها الرماد حتى أخفاها حتى على تلك النفس التي كانت تحملها وتحترق بها .

ولم يكن بد من أن يصل الجامعة ليزول الرماد المتكاثف ، وإذا هي تبدو ساطعة لامعة تملأ الأرض من حولها نوراً وهاجاً يستضيء به الطلاب فيستزيدون من العلم ويستحبون هذه الاستزادة ويستضيء به الزملاء فيستعينون بهذا الضوء على أن يبحثوا ويجدوا وينتجوا ، ويستضيء به المستشرقون الأجانب فيصنعون صنيع الزملاء من المواطنين .

لن يجحد فضل أحمد أمين على هذا اللون من ألوان الثقافة الإسلامية إلا جاهل لا يعبأ الله به ، ولا يأبه الناس له ، أو جاحد لا خير فيه لنفسه ولا للناس .

ومهما يكن رأى الناس في أحمد أمين فلن يشك في فضله على الثقافة الإسلامية إلا الذين لا خلاق لهم من الجاهلين والجاحدين .

ومع كل هذا فلم يرض أحمد أمين عن نفسه لأنه لم يجدها كاملة كما كان يجب أن يجدها .

كان يريد أن يعرف كل شيء وأن ينتج في كل شيء وأن يسبق كل شيء كما أساغ تاريخ الثقافة الإسلامية .

ولكن الإنسان الذي يستطيع أن يعرف كل شيء ، وينتج في كل شيء ، لم يوجد بعد ، وما أرى أنه سيوجد آخر الدهر .

ومع ذلك فقد حاول أمين محاولات لا تحصى ، فهو ينفرد بالإنتاج مرة في هذا اللون من ألوان المعرفة ، ويشارك مرة أخرى هذا الزميل أو ذاك من زملائه وهذا الطالب أو ذاك من طلابه فيبلغ بهذا كله ما يستطيع لا ما يريد ولا ما يريد له المخلصون من الصديق : ولكنه كأي كادح دائماً لا يستريح ولا يريح ؛ تراه مؤلفاً للكتب وكاتباً في الصحف ، ومشرقاً على نشر الأدب القديم ومشاركاً في هذا النشر ، ومديراً لكل ما وكل إليه من أمر في كلية الآداب ، أو في جامعة

الأمم العربية ، أوفى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، أوفى إدارة الثقافة العامة ،
أوفيا شاء الله من الأعمال المختلفة التي شارك فيها والتي لا تكاد تحصى .

كانت نفسه أشبه شيء بالنصل الذي يبلى غمده ، وبالجدوة التي تحرق
جسمها . وقد أبلى غمده وأحرق جسمه ، ولم يقتنع مع ذلك بأن غمده قد أدركه
البلى ولا بأن قد جعلته تلك الجدوة الداخلية رمادا . فكان يكلف هذا الجسم
البائس على مرضه وأدوائه ما لا تتكلفه أجسام الأحياء .

وقد فارق الدنيا رحمه الله وهو يتكلف الإنتاج والعمل الخصب . وقضى وإن
له لكتباً منها ما يطبع ومنها ما يهيا للطبع .

فإذا لم يكن أحمد أمين مثلاً رائعاً للجد المنتج والنشاط الخصب والمثابرة التي
لا تعرف كللاً ولا مللاً والمقاومة التي لا تعرف ضعفاً ولا فتوراً والثقة التي لا تعرف
شكاً ولا تردداً فلا ينبغي للمصريين أن ينتظروا مثلاً رائعاً من أى مواطن آخر .
أما أنا فأؤمن بأن أحمد أمين قد كان صورة رائعة صادقة لوطنه هذا الخالد .

وهل مصر إلا جدوة حية قوية تكاثف عليها الرماد حتى جهلت نفسها وهي
تحاول الآن أن تزيل عن نفسها هذا الرماد بجهد المؤمنين الصادقين من أبنائها ،
من أمثال أحمد أمين .

فما أجدر المصريين أن ينشدوا إذا ذكر لهم موت أحمد أمين قول ذلك
الشاعر القديم :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ماشاء أن يترحمها
وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما
وأنا أرجو مع ذلك أن يكون لمصر في المؤمنين الصادقين من أبنائها شيء
من العزاء .

وأنا واثق آخر الأمر بأن من ألف فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام
أبقى على الأيام من أن يدركه الموت .



أحد أمين بمكتبه بالإدارة الثقافية بالجامعة العربية

أحمد أمين... المجاهد

بقلم الدكتور

عبد الرزاق أحمد الصنوبري

قد كنتُ أؤثر أن تقول رثائي يا منصف الموتى من الأحياء
كنتُ أخشى هذا اليوم — يوم أرثيه — بعد أن رأيتُ المرض قد ألح
عليه ، وتغلغل في جسمه ، ولم يُبق منه إلا عقلا يقظا ، وإلا قلبا ينبض بحب
العمل . فكنتُ أقول في نفسي : أتكُونُ منيته أقرب من منيتي ؟ وهل تراه
يودع الدنيا قبل أن أودعها ؟ وهل تراني أنا الذي أرثيه لا هو الذي يرثيني ؟ ثم
أنتهى إلى قول الشاعر العربي :

لعمري وما أدري وأنى لأوجل على أينما تعدو المنية أول
لقد عدت عليه المنية أولا ، ويا للفجعة فيه . وكلنا لا حقون به . وما الحياة
إلا طريق الموت . من يولد يعيش ، ومن يعيش يموت ، وهذه هي كل قصة الحياة .
فما أقسى حظ الإنسان في هذه الدنيا .

يدور كدود القز ينسج دائما ويهلك غما وسط ما هو ناسجه
ولكن بين الميلاد والموت يعيش الإنسان وقتا يطول أو يقصر . وهذا هو
الوقت الذي يسجل فيه الحضارة البشرية على هذه الأرض . ويتعاون الناس جميعا
في تسجيل هذه الحضارة . فمنهم من يكون نصيبه تافها أو معدوما ، ومنهم من
يكون نصيبه كبيرا موفورا . وفقيدنا أحمد أمين من الناس الذين كان نصيبهم
في تسجيل الحضارة كبيرا موفورا .

لم يعيش لنفسه بقدر ما عاش للناس . فرض على نفسه الجهاد في الحياة . بل

لعل الجهاد هو الذى فرض نفسه عليه ، فلم يكن يستطيع منه خلاصا . عاش مجاهدا ، ومات مجاهدا ، ولم يختره الله لرضوانه إلا بعد أن أبقي اسمه على كل لسان وفى كل قلب ، رمزا للعلم الواسع ، وللعقل الكبير ، وللخلق العظيم . خدم العلم فأحسن خدمته ، وجاهد فى سبيل الحق فأعلى كلمته ، وكان فى هذا البلد رجلا حين تعز الرجال — جاهد جهادا طويلا عنيفا موفقا ، وآن له اليوم أن يلقى سلاحه وأن يرتاح ، بعد أن أصبح مثالا يقتدى به فى العمل والصبر والجهاد .

* * *

رأيت أحمد أمين أول مرة فى مدرسة القضاء الشرعى . كان ذلك فى سنة ١٩٢٠ . وكنت قبل ذلك وكيفا بالنيابة العامة ، فتركت وظيفتى هذه إلى وظيفة بمدرسة القضاء الشرعى لتدريس القانون ، فقد كنت شغوفًا بالفقه القانونى ، ولم يكن لى إليه إلا هذا السبيل . وأشهد أنه كان سبيلا رجبا كريم الوفادة ، وقد استقبلنى منذ بدايتى فيه الأستاذ عاطف بركات ، ناظر المدرسة ، استقبالا ينطوى على كثير من العطف والود . ثم عرفت فى المدرسة كثيرا من أساتذتها ، وأولهم أحمد أمين .

كان إذ ذاك شابا معما ، يبدو على وجهه من إمارات الجد والرزانة ما يجعل مظهره يزيد على سنه ، لولا دعاية عرفت عنه ، وفكاهات ظريفة يتحدث بها إلى سامعيه من وقت إلى آخر ، فكانوا يضحكون لها ويكون هو أول الضاحكين . ولعل هذا القليل من المرح هو الذى كان يلطف من حدة الجد فى حياته ، وكان إخوانه وزملاؤه من أجل ذلك يستلطفون عشرته ، ويستطيون صحبته .

ولم تلبث صلتى به أن توثقت . فقد راقنى منه — إلى جانب هذا المرح — نظرة عميقة إلى الحياة ، ونفس صافية لا زغل فيها ولا كدر . وانقلبت هذه الصلة الوثيقة إلى صداقة متينة فى خلال شهور قليلة ، فقد أقبل كل منا على صاحبه ،

واغتنبتُ جد الاغتناب بهذه الصداقة الجديدة ، فقد كنتُ بطبعي أتوخى الدقة في اختيار أصدقائي ، وأميز بين الصديق والزميل ، فلا أدخل في نطاق الصداقة إلا عدداً محدوداً ممن أستصفي ودهم .

ولفت نظري في صديق الجديد أن وجدته يجمع بين العقل والقلب . له عقل كبير يستوعب الدقيق من الأمر ، ويحيط به إحاطة شاملة لا يقف فيها عند التفصيلات ، بل يستخلص منها القواعد والأسس ، وهو في هذا يختلف اختلافاً واضحاً عن كثير من زملائه ممن تتفقوا مثل ثقافته . وله قلب رقيق ، ينبض رحمة ويفيض حناناً ، يحس آلام الأشقياء فتتقلب آلاماً لنفسه ، ويخفق لكل معنى كريم نبيل . وقليل من الناس من يجمع بين العقل والقلب . فكثير من العقول الكبيرة خاوية إلا من التفكير المجرد الفاتر الذي لا لون له ، وكثير من القلوب الرقيقة لا تعرف إلا التوجع المضمي وإلا العاطفة المائعة . بل إن اجتماع العقل والقلب هو الذي يخلق الرجل المجاهد . فالعقل يدل صاحبه على المبدأ السليم والعقيدة الحقة . والقلب يغرس في نفسه هذه العقيدة غرساً قوياً لا يمكن معه اقتلاعها . على أن صديقي الجديد لم يجتمع فيه العقل والقلب فحسب . بل رأيت فيه إلى جانب ذلك كثيراً من الترفع والإباء ، فهو لا يقبل المهانة ، ويأبى الظلم والضميم .

وقديماً قال الشاعر العربي :

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حَيِّياً تجتنبك المظالم

وكان صديقي يجمع العقل القوي ، والقلب الذكي ، والأنف الحى . ولكن لم يكن في يده صارم ، بل كان في يده قلم . فلم تجتنبه المظالم ... ذلك أن الحضارة البشرية لم تصل بعدُ إلى مرحلة من الرقي تعدل فيها بين الصارم والقلم . على أن صديقي إذا فاته أن تجتنبه المظالم ، لم يفته أن يكون مجاهداً ، وهذه عناصر الجهاد كلها قد اجتمعت له . وأشهد أن صديقي عاش حياته كلها مجاهداً : جاهد في

سبيل المبدأ ، وجاهد في سبيل الوطن ، وجاهد في سبيل العلم .

* * *

جاهد في سبيل المبدأ

كان أحمد أمين رجلا ذا مبدأ لا يحيد عنه . ومن يكن له في الحياة مثل أعلى لا يقبل الدنية ، ولا يعرف التقلب ، ويدرك معنى الوفاء ، ويجد اللذة في الجهاد . هذه الصفات مجتمعة لم ألبث أن رأيتها قد تجلت فيه قبل أن تنتصف السنة الوحيدة التي قضيتها في مدرسة القضاء الشرعي . وأسوق قصة من قصص جهاده في سبيل المبدأ والوفاء .

كانت مصر ، في أوائل سنة ١٩٢١ ، وفدية خالصة . وكان توفيق نسيم رئيسا للوزارة ينفذ سياسة القصر . فعزل عاطف بركات ناظر مدرسة القضاء الشرعي من منصبه إذ حسبه ، وحسب معه مدرسة القضاء الشرعي ، بؤرة تعشش فيها الوطنية ، هذه الوطنية التي لم يتلوث توفيق نسيم بأوساخها فيما روى عنه . فقامت مدرسة القضاء الشرعي ، أساتذة وطلبة ، يحتجون على هذا التعسف . ثم زادت المسألة تعقدا أن انقسم البلد إلى فريقين : أغلبية مع سعد وأقلية مع عدلي ، وذلك بعد سقوط وزارة توفيق نسيم . فتعذر إرجاع عاطف بركات إلى مدرسة القضاء ، إذ كان عدلي على رأس الوزارة ، وكان عاطف في الأغلبية التي مع سعد .

فقمعت حركة مدرسة القضاء الشرعي في قسوة عنيفة . وتناول القمع الطلبة والأساتذة جميعا . وما لبثت حركة القمع أن آتت ثمارها . فهدأ الطلبة ، وتفرق الأساتذة ، وانعزل كل في عمله ، وعين الحكومة ساهرة على الجميع . وانقسم الأساتذة إلى فريقين : فريق انصرف إلى عمله لا يتكلم إلا همسا ومن وراء حجاب ، وهذا هو الفريق الأكثر شجاعة والأقوى قلبا . وفريق آخر أخذ جانب الحكومة ، وتذكر لعاطف بركات ، وانقلب حربا عليه وعلى شيعته .

فما راعنى فى وسط هذه الظلمة الظلماء ، والأعاصير العاصفة إلا أحمد أمين ،
يز عن جميع الأساتذة ، ووقف ثابتاً فى مكانه ، موالياً لأستاذه عاطف ، مجاهداً
فى سبيل وفائه وإخلاصه لمبدئه . ويعلم الله ماذا حمل من أجل ذلك من عنت
 وإرهاق واضطهاد ، وهو لا يتحول ولا يتزعزع . ووقف إلى جانبه من الأساتذة
 اثنان أو ثلاثة ، أذكر منهم رجلاً قوى الإيمان نبيل الخلق ، هو المرحوم الأستاذ
 عبد الوهاب خير الدين ، ولا أنسى له هذا الموقف طول حياتى .

وأمضينا بقية العام فى هم ونكد . وبقي أحمد أمين على جهاده ، لا تحور
 عزيمته ، ولا تهين قوته ، يحتسب فى سبيل الله وفى سبيل الجهاد والمبدأ ما يلاقى
 من ضغط ، وما يحيط به من عنف وقسوة . حتى إذا انقضى العام ، قبض الله لى
 الخلاص ، فأرسلتُ فى بعثة للقانون إلى فرنسا . أما أحمد أمين ، فقد اقتلعتة
 أعاصير الظلم من مدرسة القضاء التى نشأ فيها طالباً وعاش أستاذاً ، وقذفت به إلى
 وظيفة قاض شرعى فى بلد ريفى !

* * *

وجاهد فى سبيل الوطن

دارت الأعوام ، وقضيت منها خمسة فى فرنسا ، قضيت بقضاؤها بعثتى فى
 القانون . ورجعت إلى مصر ، لأجد صديقى أحمد أمين لا يزال فى مكانه قاضياً
 شرعياً ، حيث كانت أعاصير السياسة قد قذفت به جزاء جهاده فى سبيل الحق
 والمبدأ ، وفى سبيل الكرامة والوفاء .

فعبجت أشد العجب . بل كان عجيبى عجيبين :

عجبت أولاً من أن صديقى أحمد أمين إنما كان قد أقصى عن مدرسة القضاء
 الشرعى من أجل مبدئه ومن أجل وفائه لأستاذه عاطف بركات . وكنت أعلم

إلى جانب ذلك أنه كان معروفا بحبه للوفد مشبعا بمبادئه ، أثيراً عند زعيمه سعد زغلول . وأنه أدى كثيراً من الخدمات إلى الوفد وزعيمه ، بل إن الزعيم كان يستنير برأيه عن الحالة في مصر ، وعما عسى أن يكون استقبال الزعيم فيها إذا قدم إليها من فرنسا بعد الانتهاء من مفاوضة لجنة ملتر . كنتُ أعلم كل ذلك ، وأعلم كثيراً مثله ، مما يجعل أحمد أمين في مقدمة الطبقة المثقفة الوفدية ، المخلصة لمبادئها ، المتفانية في جهادها من أجل الوطن . وهذه الأعوام الخمسة التي مرت قد سجلت أحداثاً جساماً . فهذا الأستاذ عاطف بركات قد رجع ، ولكن لا إلى مدرسة القضاء الشرعى ، بل إلى وكالة وزارة المعارف ، وهي وظيفة تعد أجل شأناً وأكبر خطراً من وظيفة ناظر مدرسة القضاء الشرعى . وهذا الوفد قد ولى الحكم مرتين ، فراحت وجوه قديمة ، وجاءت وجوه جديدة ، وولى الوظائف كبيرها وصغيرها من عرف بالوفدية ممن كانوا موظفين أو من غيرهم . ولما رجعتُ إلى مصر ، وجدت على رأس الوزارة عدلى يكن ، وعلى رأس مجلس النواب سعد زغلول . أما صديقى أحمد أمين ، فكان لا بد من البحث عنه طويلاً ، حتى إذا ما عثرتُ عليه ، وجدته مغموراً في ركن مهجور من وظائف القضاة الشرعيين ، حيث كان منذ خمسة من الأعوام . لقد رجع أستاذه وصديقه الحميم عاطف بركات إلى مناصب الحكومة الكبرى ، وولى وكالة وزارة المعارف ، وكان يستطيع في القليل أن يعوض على الرجل بعض ما عانى في سبيل وفائه له وفي سبيل الجهاد عن المبدأ والكرامة ، ولكنه لم يفعل شيئاً ! ولى الوفد الحكم مرتين ، وفي كل مرة كان يستطيع أن يجزى أحمد أمين خير الجزاء ، إن لم يكن من أجل إخلاصه لوطنه ، وجهاده في سبيله ، وصبره على المسكاره والتضحية ، فعلى الأقل من أجل وفديته الخالصة من الدغل ، البريئة عن المصانعة والمداجاة . ولكن الوفد لم يفعل شيئاً ! عجبت أشد العجب لذلك . وكنتُ وقتئذ من أشد المصريين إخلاصاً لمبادئ الوفد ، ومن أعظمهم إيماناً

برسالته . فلم ينل ذلك من إخلاصى للوفد ، ولكنه أشاع فى نفسى قلقا غامضا وحيرة مكتومة . ثم ما لبث عجبى هذا الأول أن زال بعجب أشد منه .

عجبت ثانياً من صديقى أحمد أمين نفسه . قابلنى بعد عودتى من فرنسا متهللاً باشاً ، يحدثنى عما تعاقب على مصر من أحداث فى غيبتى ، وعما خطت مصر فى جهادها المقدس من مراحل ، وهو مبتهج راض بما تم ، أمل المزيد فى المستقبل ، وكأنه يروى تاريخاً مجرداً ليس له شأن فيه ، ولا لشخصه دخل فى حوادثه . لم يذكر لى إلا لما — وهو يستطرد — ما جاهد وما قاسى فى سبيل إخلاصه لوطنه ، ولا يتحدث عن ذلك إلا إذا اضطر إليه اضطراراً لصلة ضرورية تصل بين حادثين أو تعلل أمراً لا بد من تعليله . ففهرست فى أعماق نفسه ، فوجدته مطمئناً هادئاً لا يتكلف ولا يتصنع . ليس فى نفسه مرارة ، ولا ترتسم على وجهه أمارات الأمل الضائع ، بل هو قانع بنصيبه كل القناعة ، مغتبط لما يحسب أن مصر قد اجتازته من عقبات وقطعت من مراحل فى سبيل استكمال استقلالها .

لقد كان عجبى الثانى هذا شديداً عميقاً نسيت معه عجبى الأول . فلم أعد أفكر فى تصرفات الوفد ، ولم يعد يعينى ما إذا كان صديقى قد جوزى على جهاده وتضحيته . وإنما عنانى أشد ما عنانى أن أحلل فى صديقى هذه النفس الراضية المرضية التى قال الله تعالى فى وصفها : « يأتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى ، وادخلى جنتى » .

وسألت صديقى — وأنا فى سبيل تحليل نفسه — عما إذا كان لم يشعر من الوفد بشيء من الجحود أن تركه منزوياً فى وظيفة قاض شرعى ، دون أن يعيده على الأقل إلى وظيفته الأولى التى اقتلع منها وهو يجاهد فى سبيل الحق ، والمبدأ ، والكرامة ؟ فأجابنى فى غير تردد أنه لا يرى رأى ، وأنه يعتقد أنه لو أراد أية وظيفة وطلبها من الوفد لم يكن ليخل عليه بها ، ولكنه لم يطلب شيئاً ، وما كان

ليطلب شيئاً ، لأنه إنما فعل ما فعل ، لا ابتغاء وظيفة أو جاه أو مال ، ولكن إخلاصاً للمبدأ ، وجهاداً في سبيل الحق ، وأنه لينتقم من جهاده أن يسأل الجزاء عليه . وبجسبه أنه أدى بعض الخدمات لوطنه ، وإنه تقرير العين بما أدى ، ولا يريد على ذلك جزاء ولا شكورا .

تأثرت أعمق التأثير من هذه الإجابة . ورجعت إلى ما كنت قبل سفري أحلل به صديقي ، وأعلم أنه يمتاز به عن غيره : هذا العقل القوى ، وهذا القلب الذكي ، وهذا الأنف الحى . هذه العناصر الثلاثة التى تأتلف لتخلق الرجل المجاهد . لقد كان رجلاً مجاهداً حقاً في سبيل مبدئه ، وفي سبيل وطنه ، وجهاده جهاد صامت لا ينجح إلى الضجة ، ولا يميل إلى الدعاية ، ولا ينتظر المكافأة ، ولا يتطلع إلى الجزاء .

لم أكن أعلم إذ ذاك — وكنت وفدياً مؤمناً أعمق الإيمان بوفديتى — أن صديقى ليس من الطراز الذى تنفق سوقه فى ميادين الدعاية ، ولا من الرجال الذين تلهب لهم أ كف الجماهير بالتصفيق . لقد كان صديقى رجلاً مجاهداً ذامبداً لا يتقلب فيه . وهذه صفة تبعده عن الجماهير ، ولا تدنيه من رجال النفوذ والحكم فالجماهير لا تحب إلا الضوضاء والضجيج ، ولا يبهى نظرها إلا اللعان والبريق . ورجال النفوذ والحكم يحبون اللق ، فيجوز عليهم الرياء والنفاق ، ثم هم أيضاً قد وصلوا إلى مناصب الحكم بالضوضاء والضجيج ، فيؤثرون أن يستبقوا بضوضائهم وضجيجهم مناصب الحكم التى وصلوا إليها . وصاحبى لا يحب الضوضاء والضجيج ، ويكره الرياء والنفاق ، ويمقت التلون والتقلب . فمن أين له السبيل إلى رجال النفوذ والحكم ، ودون ذلك بحر مرغ مزبد من الضوضاء والضجيج ، حول رجراج من التلون والتقلب ، كدرنق من الرياء والنفاق !

لم يكن لصديقى إذن إلا أن يقنع بمكانه الذى هو فيه . ولا أحسب أن مرد

قناعته كان إلى المعانى التى ذكرتها ، بل كان مردها إلى هذه النفس الطاهرة الزكية ، التى خلقت مجاهدة دون أن تنتظر على الجهاد أجراً .

* * *

جاهد فى سبيل العلم

على أن صديقى لم يلبث أن أحس ضيق الأفق الذى يتنفس فيه . لقد كان يدرك من وقت طويل أنه لم يخلق ليكون قاضياً شرعياً ، ينظر فى قضايا الزواج والطلاق والنفقة والموارث ، وإن كان قد استوعب ما لهذه الأقضية من نواح اجتماعية استيعاباً عميقاً هو الذى استبقاه فى وظيفته طول هذه المدة . لقد كان يحب العلم منذ دخل مدرسة القضاء الشرعى طالباً ، وتخرج فيها أستاذاً . وكان يعمل الليل والنهار على تثقيف نفسه بنفسه . لقد وجد أمامه خزان الفكر الإسلامى مكدسة تعي من يحاول الإحاطة بها . فهجم على هذه الخزائن ، مستعيناً فى ذلك بوسيلتين . ثقافة إسلامية عريقة تأصلت فى نفسه منذ الصغر ، وعقل نافذ مرتب يغوص فى الأعماق فلا يسلط أضواءه على الفكرة حتى يستخلص لبابها وي طرح عنها القشور التى تستر منها الجوهر . وأدرك قبل فوات الأوان أنه لا بد له من تحصيل لغة أجنبية يطل منها على الحضارة العالمية التى يعيش فيها ، حتى يدرك الصلة بين القديم والحديث . فما لبث أن تعلم اللغة الإنجليزية ، بحيث استطاع من طريقها أن يلم بما وصلت إليه حضارة الغرب ، وبخاصة ما وصل إليه المستشرقون فى دراساتهم للفكر الإسلامى .

بينما هو يعد نفسه للرسالة التى كتب الله له أن يؤديها فى هذه الحياة ، أحسست منه قلقاً يشوبه شئ من الضجر . وعامت منه أنه يتطلع إلى وظيفة هى الغاية فى أمانيه . لم تكن هذه الوظيفة — كما قد يخال كثير من الناس — منصباً كبيراً من مناصب الدولة ، مما وصل إليه من همونه علماً وخلقاً وصلة بذوى النفوذ

والحكم ، بل هي لم تكن إلا وظيفة مدرس للشرعة الإسلامية في كلية الحقوق .
هي وظيفة صغيرة دون شك من حيث المال والجاه والنفوذ ، ولكنها كبيرة من
حيث ما تهيم له من جو علمي خالص يستطيع فيه أن يخدم الفقه الإسلامى الخدمة
التي طال انتظاره لها . وكنت دائماً أومن أعمق الإيمان أن هذا الفقه الإسلامى
في حاجة ملحة إلى عقل قوى يعيد له سيرته الأولى ، وينتشله مما أحاط به من
الجمود ، ويساير به الزمن ، بعد أن ينفذ عنه ماتراكم عليه من غبار الدهور
المتعاقبة . ولم أكن أشك في أن الفقه الإسلامى سيجد في صديقى هذا العقل القوى
الذى يقيل عثرته ، ويحدد نهضته . فاغتنبت جد الاغتياب إذ أنست من صديقى
هذا الميل . وحسبت أن الأمر ميسر . فقد كنت إذا ذاك منخرطاً في سلك هيئة
التدريس بكلية الحقوق أقوم بتدريس القانون المدنى . بل كان أمامنا سبب يهيم
سبيل النجاح أهم من ذلك بكثير . فقد كان عميد الكلية في ذلك الوقت هو
المغفور له أحمد أمين ، سمى صديقى ، وصديقه الحميم . فقد كانت هناك صلة صداقة
متينة توقت بينهما منذ كان العميد أحمد أمين أستاذاً للقانون في مدرسة القضاء
الشرعى ، وهى الوظيفة التى توليتها فيما بعد على ما قدمت ، والتى عرفت صديقى
عن طريقها ، كما عرفه العميد أحمد أمين . ولكن بالرغم من كل هذه الظروف
المواتية التى كان من شأنها أن تنيل صديقى الكبير هذه الوظيفة الصغيرة بكلية
الحقوق ، لم يتمكن ، ويعاونه صديقان من أخلص أصدقائه أحدهما عميد الكلية
نفسه ، من أن يحقق أمنيته .

رب ضارة نافعة . لقد كنت أحسب إذ ذاك أن ما أخطأ صديقى من التوفيق
خسارة كبيرة على العلم . ولم أكن أدرك عندئذ أنه ليس إلا خسارة على الفقه
الإسلامى وحده . أما على العلم بمعناه الواسع ، وعلى الفكر الإسلامى فى عمومه
وشموله ، فليست هناك أية خسارة ، بل هناك كسب محقق . ذلك أن زميلاً آخر
كان يهيم لصديقى مكانه فى كلية الآداب ، ذلك المكان الذى دخل إليه ، ولم

يفادره طول حياته . لقد كانت الأقدار أبعد نظراً وأنفذ بصيرة . أراد لنفسه دائرة محدودة ، وأراد الله له دائرة أوسع . بل إنى لأتساءل الآن أليس هذا العمل الفكرى الجليل الذى تولاه صديقى فى كلية الآداب أقرب إلى مزاجه العلمى ، وأدنى إلى ثقافته المكسوبة من الفقه الإسلامى فى كلية الحقوق ؟

ومهما يكن من أمر ، فإن صديقى لم يدخل مدرساً للشرعية الإسلامية فى كلية الحقوق ، ولكنه دخل مدرساً للأدب العربى فى كلية الآداب ، وكانت هذه هى الخطوة الأولى فى حياته الجديدة .

وهذه الحياة الجديدة كرس نفسه فيها للعلم ، وللعلم وحده . لقد عافت نفسه السياسة وما يملأ سطحها من سعايات ودسائس ، وما يحيط بها من دنية وصغار ، وما تضطرب به من نفاق وملق . بل هو لم يعرف هذا اللون من السياسة قط ، ولم يك ليصلح له لو أنه عرفه . لقد كان لا يفرق بين السياسة والوطنية ، فالسياسة عنده هى أن يخدم وطنه . ولذلك عمل فى السياسة عندما كانت وطنيه خالصة تصهر القلوب ، وتنقى الضمائر والنفوس ، وأقبل عليها أشد ما يقبل ، لا ينتظر جزاء ولا مكافأة . فلما تطورت الأمور ، وانحرفت النفوس ، وأصبحت السياسة أن تنتمى إلى حزب لتتهافت له أصاب أو أخطأ ، وتصفق لزعيمه هدى أو ضل ، لا بل أن تنتمى اليوم إلى حزب وقد ولى الحكم لتتركه غداً إلى حزب آخر وقد خلف فى الحكم الحزب الأول ، لما أصبحت السياسة هى الوصولية والنفعية على هذا النحو ، كان لا بد لصاحبي أن يهجرها ، فلم تخلق له ولم يخلق لها . وانصرف إلى العلم كما تمليه عليه سجيته التى فطره الله عليها .

وإنى لأتساءل هنا ، مرة أخرى ، لو كانت السياسة وطأت أكنافها ورحبت مسالكها لصاحبي ، لو كانت هذه السياسة بقيت وطنية خالصة كما كانت ، وبقي صاحبي خائضاً غمارها ، فأية خسارة فادحة إذن كان يخسرها العلم والفكر الإسلامى

وقد عجزا عن أن يجذباه إلى جانبهما ونجحت السياسة في أن تصرفه عنهما ! إن الله لأكرم على العلم والإسلام من أن يقدر ذلك ، فحمد الله وشكرا .

انصرف إذن صاحبي في كلية الآداب إلى العلم يجاهد في سبيله . ومنذ رفعت يده راية العلم لم تهبط بها ، ومنذ اشتعلت في صدره جذوة المعرفة لم تنطفئ هذه الجذوة . وقد خدم بالعلم مصر وطنه الأصغر ، والإسلام وطنه الأكبر .

وأما ما اختاره للجهاد العلني فقد حدثني أنه وزميلين وضعوا الخطوط الرئيسية لمشروع ضخيم كبير . يؤرخ أحدهم للإسلام حياته الأدبية ، ويؤرخ الثاني للإسلام حياته السياسية ويؤرخ صديقي للإسلام حياته العقلية .

فاضطلع صديقي بنصيبه من هذا المشروع : سلسلة من الكتب هي من أقوم وأروع ما وضع عن الحياة العقلية والفكرية للإسلام منذ فجره إلى أن اشتد عوده واكتهل . فأسس صديقي مدرسة في الفكر الإسلامي لا أعرف أن معاصرا قام بعمل يدانيها . وستبقى هذه المدرسة راسخة الأصل باذخة الفروع ، تظل الجيل بعد الجيل وسيكثر تلاميذها ، وسيقتد هؤلاء التلاميذ من صديقي لمدرستهم أستاذا إماما وزعيما فكريا كبيرا .

رحمه الله رحمة واسعة . لقد جاهد جهادا قويا عنيفا في سبيل المبدأ ، وفي سبيل الوطن ، وفي سبيل العلم . وقاسى في جهاده هذا القوى العنيف ألم الجسد وألم الجحود والسكران ، في دولة لا تزال مشغولة عن العلم وعن تكريم العلماء . وبقي يجاهد إلى آخر لحظة من حياته ، فسقط في الميدان صريعا ولم يسقط من يده القلم .

ذكريات عن أحمد أمين

بقلم الدكتور

عبد الوهاب عزام

هي ذكريات لا يؤلف بينها موضوع ، ولا يجمعها زمان ولا مكان ؛
ولكن تنظمها كلها الصحبة الطويلة ، والصلة الروحية ، بيني وبين الأستاذ
المفتقد أحمد أمين رحمه الله :

دخلت مدرسة القضاء الشرعي في السنة الأولى من القسم الأول والأستاذ
رحمة الله عليه في السنة الآخرة من القسم العالي . وكانت مدة الدراسة في القسمين
تسع سنوات ، وكان هو من الفريق الذي التحق بالقسم العالي مباشرة قبل أن يعدّ
القسم الأول الطلبة لذلك القسم .

ولا أزال أذكر صورته ، ولعلمها أول صورة وعيتها ، وهو خارج من المدرسة
في نفر من أصحابه . قال أحد رفقائي : هذا أول المدرسة وجبته ممزوقة ، وكان أحد
أصحاب الأستاذ مزح معه ذلك اليوم فجذبه فأنمزق كفه .

وتخرج الأستاذ تلك السنة وتولى القضاء . ثم رجع إلى المدرسة مدرّسا .
ولا أتذكر متى كان هذا .

وحينا كنت من طلبة القسم العالي درس لنا الأستاذ علم الأخلاق أو فلسفة
الأخلاق . وكان تلقاه عن أستاذه محمد عاطف بركات ناظر المدرسة رحمه الله . ثم
تولى درس هذا العلم لنا الأستاذ محمد عاطف نفسه . وكان أحمد الأمين حريصا
على متابعة التلقى عن أستاذه فكان يوضع له كرسي فيستمع إلى درس الأخلاق

معنا . وكان موضوع الدرس حينئذ رسالة في مذهب المنفعة للفيلسوف الإنكليزي استوارت ميل .

وجاء في مقدمة هذه الرسالة كلام عن الأخلاق « منذ جلس الشاب سقراط يتلقى العلم عن الشيخ فيثاغورس » فأولع الطلبة منذ قرءوا هذه الجملة أن يلقبوا أحد الأمين « الشاب سقراط » .

ودرس لنا الأستاذ كذلك في إحدى السنين تاريخ الأندلس . ولم يكن أستاذ تاريخ ولكن محمد عاطف — وكان ينظر إلى كفاية المدرس ولا يتقيد بالقيود المألوفة في المدارس — عهد إليه بهذا الدرس . فأحسن البيان والتلخيص وكتب خلاصة شاعت في المدرسة إذ ذاك .

* * *

ثم أعيد أحمد الأمين إلى القضاء فاحتفلت المدرسة بتوديعه . وكنت تخرجت فيها ولحقت بها مدرسا . فألقيت كلمة مجملة ذكرت فيها طرفا مما عرفت من أحواله وسيرته وكانت ذكريات كالتى أكتبها اليوم ، وأذكر كذلك أنى حينما أنهيت دراسة هذه الكلية التى كانت تسمى مدرسة القضاء الشرعى ، واختارنى الناظر للتدريس فيها عهد إلى الأستاذ رحمه الله ليخبرنى بهذا الاختيار ويسألنى عن العلوم التى أرغب فى تدريسها ، فأبرق إلىّ وأنا فى قرىتي نجنت إلى القاهرة ولقيته فحدثنى فى هذا الشأن .

* * *

وتركت المدرسة بعد ثلاث سنين من تدريسي فيها ، وسافرت إلى لندن حتى أنشئت الجامعة : جامعة القاهرة ، وكانت نواتها كلية الآداب القديمة التى تخرجت فيها وأنا مدرس بمدرسة القضاء ، فنقلت من مفوضية لندن إلى الجامعة وبها أساندنى وأصدقائى طه حسين وأحمد الأمين وعبد الحميد العبادى ، فتعاونوا فيها على وضع

السنن الصالحة للدراسة الجامعية ولا سيما دراسة اللغة العربية وآدابها . وطالت صحبتنا وتعاوننا مخلصين متأخين زهاء عشرين سنة .

ولا أعرف جماعة ألف بينها التعلم والتعليم ، ووكد صداقتها وأخذتها الصحبة في العلم كجماعتنا ، وأقصر حديثي على الأستاذ الفقيده أحمد الأمين :

لا أذكر أنى خاصمت الأستاذ أو نازعته أو نافرتة ساعة واحدة في هذه السنين الطويلة على اختلافنا في الآراء أحياناً ، واختلافنا في الطرائق والأساليب والنزعات أحياناً .

وعما يحضرني الآن أنه كتب مقالات عن الأدب الجاهلي في مجلة الرسالة مخالفته بمقالات في المجلة نفسها . وقلت في نفسي — ولعلني قلت له أيضاً — سأجعل هذه المقالات مثلاً للجدال الخالص من الشوائب ، الذي لا يقصد إلا الحق ولا يبغض الخالف حقّه ، ولا يحيد قيد شعرة عن أدب المناظرة .

ولما طبع كتابه فجر الإسلام ، كنت معه في لجنة التأليف فأرسلت المطبعة نسخاً من الكتاب ، فحرصت على أن تظفر يدي بأول نسخة . ولما أراد إعادة طبعه سألتني أن أقرأه وأبين رأيي فيما آخذه عليه . ففعلت ؛ فذكر هذا في مقدمة الطبعة الثانية .

ولما أراد أن يضع هو والأستاذ زكي نجيب محمود كتاب قصة الأدب ، سألتني فكتبت فصولاً عن الأدب الفارسي .

كذلك كان يأنس بي ويركن إليّ ، وكذلك كنت أستشيريه وأستهديه فيما يعرض لي . كما اشتركنا في وضع بعض الكتب المدرسية .

* * *

ولما احتفل أصدقاء الأستاذ وأحبأؤه بتكريمه والاعتراف بفضله فيما أخرج من كتب ، تكلمت في الحفلة فحاولت أن أذكر ما بيني وبينه ، وأن أوفيه حقه في

عشر دقائق قُسمت لكل متكلم . فيسّر لي حبه والوفاء له أن أجمل سيرته
الكريمة في دقائق عشر . ونالت الكلمة إعجاب الإخوان حاضري الحفل .

وكنت حريصاً على لقاء الأستاذ في الجامعة كلما أمكنت الفرصة . وكان من
فرص اللقاء عشر دقائق بين محاضرتين أذهب فيها إلى مكتبه فتتحدث ما وسعت
هذه الدقائق . وأذكر أن الأستاذ الإنكليزي آربري كان يشاركنا أحياناً في هذه
الفرصة القصيرة في كل أسبوع . فسُمّي هذه الاجتماع « تجمع الدقائق » وهي
تسمية بليغة وتورية طريفة .

وأتيح لي أن أسافر مع الأستاذ أسفاراً ندبتنا لها الجامعة . والسفر كما يقول
العرب ، ميزان السفر (أى المسافرين) .

سافرنا في أول بعثة من الجامعة إلى البلاد العربية ، زرنا سنة ١٩٣٠ فلسطين
وسوريا وسنة ١٩٣١ العراق . وكان الأستاذ رئيس السفرتين .

وكان لنا في السفرة الأولى فكاهات . منها أنى والصديق الأستاذ العبادي نظمنا
أبياتاً نصف فيها الأستاذ وأحد الأصحاب . وسمينا الأبيات « القصيدة المكتمة » .
ولما بلغنا حلب أخبرناه بها ، ولم نعلمه عليها ، فقال ضاحكاً : سأشرحها قبل
أن أسمعها .

وكانت المكتمة حديثاً فكها بيننا . ولم نعلمه بها إلا في سفرنا إلى العراق
السنة التالية .

والقصة في كتاب الرحلات الأولى ، ولكن الأبيات لم تنشر . وهي أبيات
لا لغو فيها ؛ أولها :



في الحجاز مع الدكتور عبد الوهاب عزام

رئيسنا المذهب والرجل المؤدب
له محيّا ضاحك واللفظ منه أعذب
وعدله في صحبه كالسيف حين يضرب

إلى آخر وصفنا إياه هو وأحد أصحابنا ، وكنا سمينا الأستاذ في هذه السفرة

« الشيخ الرئيس » .

وسنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٨ م) حججنا معاً في أول بعثة للحج من أساتذة الجامعة وطالباها . واختلف رأينا وتصرفنا فيما لقينا من مشقات هناك ، ولم يختلف بيننا قلب أو لسان . واقترح على رحمه الله أن نكتب معاً رسالة نسميها « الحج بعد عشر سنين » نصوّر فيها ما نؤمله للحج وللحجاج . ولم تتح كتابة الرسالة ولكنني كتبت مقالات وأذعت أحاديث في هذا المعنى .

وفي السنة نفسها سافرنا معاً إلى مؤتمر المستشرقين في بروكسل . اصطحبنا في السفر والإقامة منذ فارقنا القاهرة إلى أن عدنا إليها .

وكان الأستاذ يقول بين الحين والحين : أرانا اتفقنا ولم نتنازع في شيء ، فأقول مازحاً : الفضل لي .

سافرنا إلى جنوه فيلاند فلندسون في سويسرة فبركسل . وكان موضوع مقاله في المؤتمر « أبا حيان التوحيدي » وكان موضوع بحثي « السلطان الغوري ومؤلفات مخطوطة كتبت له » .

وعدنا إلى باريس فبرسيليا . وكانت نذر الحرب تروع الناس فمجلّنا العودة إلى مصر .

وكان لنا في هذه السفرة أحاديث بين الجد والفكاهة منها قصة حلاق بركسل ولا يمتنعني جلال ذكرى الأستاذ من تسجيل الفكاهات ، فإن لها من ذكراه جلالاً كذلك : رأيت الأستاذ يوماً جالساً في آخر صفوف المؤتمر وقبعته على رأسه .

فلما جلست إليه قال : أصابني اليوم ما أصابني من حلاق سألته أن يقصر شعري فأحفاه كما ترى والهواء بارد فلا أستطيع أن أحسر عن رأسي .

فذهبت بالخبر إلى الدكتور طه حسين ، وكان في المؤتمر ، فصار حديث فكاهة بين الحين والحين ، وسارعت أنظم أرجوزة تتضمن هذه القصة أولها :
قص علينا أحمد الأمين وهو لعمرى كاسمه أمين
ومنها :

قد أم في بركسل حلاقاً لاقاه من غبائه ما لاقى
ومنها :

أشار للحلاق : قصّر شعري ولغة الحلاق ليس يدري
ولم يك الحلاق باللييب فما درى إشارة الأديب
فأعمل موسى ولم يبال بما يصيب الرأس من وبال
ونظر الأستاذ في المـرآة فأبصر الفروّة كالصفاء
وراح بالكف يمسّ الراسا كأنما مسّت يده طاسا
فصاح بالحلاق : ماذا ماذا ؟

فقال كُمنّ (Comment) أنت قلت هذا ؟

وقلت في الأرجوزة إن الأستاذ تعزّي بالعلماء وقال إنهم يقصّرون شعرهم بل كثير منهم أصلع لا شعر له وأنه عدّ بعض العلماء إلى أن قال :

وأحسب الشيخ أبا حيانا قد كان في صلعته أخانا
وكان بحث الأستاذ عن أبي حيان التوحيدي كما تقدم .

وكان لنا من بعد اشتراك في مهرجان المعري في الشام وفي المؤتمر الثقافي

العربي في لبنان ومؤتمر الأثار العربية في دمشق . وكنا في هذين المؤتمرين نمثل اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية . وكنا ندبنا مستشارين فيها . ثم تركتها من بعد فتولى هو رياستها . وكانت صحبتنا في هذه الأسفار والمؤتمرات كصحبتنا في غيرها ، مودة وأخوة . احفظ له حرمة السن والأستاذية ، ويحفظ لى حرمة الصحبة والزمالة والصدقة . ويضيق المقام عن التفصيل . وليته يتسع .

* * *

وكان رحمه الله أول ما رشح لعادة كلية الآداب حاز ثمانية أصوات ، ثم حاز أكثر الأصوات المرة الثانية فاختر عميذا . ثم استقال قبل انتهاء مدة العادة بشهرين أو ثلاثة .

ونلت من بعد في أول ما ترشيح للعادة ثمانية أصوات ثم نلت الكثرة في المرة الثانية فانتخبت .

وتذاكرنا هذا يوما فتعجب من الاتفاق . فقلت أن اطرد القياس فسأستقيل قبل انتهاء مدة عمادتي فضحك . وقد تركت الكلية قبل انتهاء عمادتي بشهرين أو ثلاثة أيضا . فانظر إلى عجائب الاتفاق .

* * *

وذكري أخرى كثيرة يسهل على القلم أن يعددها . وهي كلها صغيرة في ظاهرها كبيرة في معناها تبدو في صورة صغيرة من الجد أو المزاح ، ولكنها كلها ذات دلالة على صحة خالصة في سبيل العلم وإخوة وفيه على مر الزمان ، وتقاب الحوادث .

ويسير على أن أكتب في الجوانب الحيدة العظيمة من سيرة الأستاذ رحمه
الله ولكن هذه الجوانب معروفة أستطيع أنا وغيرى أن نكتب فيها وسنكتب ،
وهذه الحادثات الصغيرة والفكاهات العابرة لا يعرفها غيرى وأنا أضن بها على
النسيان ، وإنما عندى لعزيزة بذكرى الصديق العزيز .
رحم الله أحمد الأمين رحمة واسعة .

أحمد أمين ... ناسر الثقافة

بقلم الأستاذ

محمد عبد الواهر خروف

كان أصدقاء الفقيد العظيم « أحمد أمين » إبان الفجيرة فيه في شغل عن التحدث عنه بما يحسونه من لوعة لفراقه وما يغمرهم من الحزن لفقده . وقد مضى عام على وفاته « ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر » .

وكانوا أطول صحبهم إياه وقر بهم منه ، واتصال حياته بحياتهم واشتراك جهوده مع جهودهم ، لا يكادون يفكرون فيه مستقلاً عنهم ، ولا يقفون موقف الفاحص الذي لا يكون صورة صميعة واضحة حتى يبعد . فها هو ذا قد أفرد الموت وباعد بينه وبينهم القبر .

فليس على أحد اليوم من حرج في أن يدرس أحمد أمين ويحلل شخصيته ويعرض جهوده وأعماله ، بل لعل ذلك واجب يقتضيه تاريخ العصر الحديث وقادة الفكر فيه ، وما من شك في أن أحمد أمين كان عالماً من أعلام الفكر ورائداً من رواد الإصلاح في ميادين كثيرة .

ولا يعني في هذه العجالة إلا ناحية واحدة طلب إلى أن أعرضها عرضاً مجللاً هي جهوده في نشر الثقافة .

كان أول ما هياً الفقيد به نفسه لحل رسالة نشر الثقافة أن بدأ بنفسه فتولاها بتثقيف ذاتي واسع يكمل ما درسه ، ويوسع دائرة تفكيره ، وكانت هذه العملية — عملية التثقيف الذاتي — عملية متصلة لم تنقطع إلى أن اختاره الله لجواره . فكان دائماً على القراءة والدرس والرجوع إلى المختصين فيما غمض عليه ، وكان يعمل

فى ذلك بلا كلل ، وكانت ثمرة هذا الجهد المتصل إحاطة واسعة بالتراث العربى القديم ومعرفة دقيقة لأهميات الكتب فيه ، وإلماما بمشاهير المؤلفين وما ألفوا فيه ، وخصائص كل منهم ، ولم يحرص قراءته فى ناحية خاصة أو قصرها على علم بذاته ، بل قرأ عيون المؤلفات فى كل علم وفن .

وقد أدرك منذ فجر الشباب أن اكتفائه بالثقافة العربية يحرمه الاتصال المباشر بمصادر المعرفة الحديثة فعكف على دراسة اللغة الانجليزية وبلغ فيها مبلغا يمكنه من فهم ما يقرأ وإن كان لم يحسن التحدث بها ، وبهذا أقبل بنهم على قراءة ما كتبه المستشرقون ، كما درس كثيرا من المراجع الأساسية فى الفلسفة والأخلاق والمنطق والأدب .

ولم تكن قراءته للتراث العربى أو لعيون الإنتاج الغربى قراءة سطحية يروح بها النفس ويزجى الفراغ ، بل كانت قراءة درس وفحص ونقد فلا يقرأ لكتاب حتى يتفاعل معه تفاعلا قويا يحص الفكرة ويصهرها ، ويتمثلها فى ذهنه صورة واضحة دقيقة ، يرضاها أو ينقدها ، وتصبح إضافة إلى ذخيرته الفكرية يرجع إليها فى يسر كلما دعت إليها حاجة .

ولم تكن القراءة هى المصدر الوحيد لتفكيره ، فقد كان فى كل ما يقع تحت حسه من مشاهد ، وما يمر به من حوادث ، مادة حية لتفكيره النشاط الفعال يتناولها بالوصف الدقيق والنقد المحص ، ويخلص منها برأى جديد أو فكرة نافعة ، وكانت اتصالاته بالرجال فى حياته العامة الخاصة ورحلاته داخل مصر وخارجها كذلك من السبل التى أمدته بفيض من الملاحظات الدقيقة .

بهذه الذخيرة الغنية بالمعلومات والمعارف ، وبما حباه الله به من تفكير منطقى دقيق ومن مقدرة على النفاذ إلى لباب الفكرة فى كل موضوع يقرؤه أو يسمعه ، دخل الفقيه ميدان نشر الثقافة .

وقد كان دخوله هذا الميدان استجابة لفرصة قوية فيه ، فقد كان كل تفكير وصل إليه في أمر من الأمور يتعمد على الحبس في رأسه ، ويضيق بالبقاء مكنونا في صدره وينزع إلى الانطلاق حيث يسمع ويحس فكان بحاجة إلى منبر عام يختلف إليه من آن لآن ، ويعرض فيه ما وصل إليه من البحث والدرس . ولعل هذا هو السر في اتجاه الفقيه إلى مهنة التعليم ، وفي أنه كلما انحرف عنها إلى غيرها من المهن عاد سريعاً إليها ، فالتعليم مجاله لنشر ما وعيه من دراسات وآراء .

على أنه كان لا يرضى بالدائرة الضيقة التي يتيحها له التعليم وحدها ، فهو يريد أن يعرض آراءه ودراساته على الناس كافة ، غير مقيد بمادة معينة ، ولا بموضوع بذاته ، وبهذا اتجه إلى الصحافة وإلى نشر الكتب .

ومن الإنصاف للفقيه أن نقرر أنه لم يتجه إلى النشر انسياقاً وراء غريزة التعبير وحدها ، فقد كانت للفقيه مثل عليا يرغب في تحقيقها ، وكانت دراساته كلها متجهة إلى إفادة الناس فيما يصلح حالهم وينهض بمستواهم .

بدأ جهده الصحافي بالكتابة في مجلة السفور مع فريق من إخوانه .

وبدأ جهده في التأليف بكتيب في الأخلاق ومبادئ الفلسفة .

على أنه كان قد أحس مع رفاقه من البداية ، أن التأليف والإنتاج الثقافي سيصيران العمل الأساسي لهم في الحياة ، ففكروا من أكثر من أربعين عاما في تأسيس هيئة لنشر الثقافة فأسسوا لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وقد ظل الفقيه طول حياته رئيساً لهذه اللجنة ومشرفاً على سياساتها الإنتاجية .

وكانما كان الفقيه يحس أنه بحكم رياسته لا يكفي أن يضطلع بأعبائها المالية والإدارية وحدها ، بل بأكبر أعبائها الفنية كذلك ، فكان إنتاجه في اللجنة أكبر إنتاج ، وكتب له التوفيق في كتبه ، فصارت من المراجع التي لا يستغنى عنها عالم أو أديب .

وتنبه الفقيد وزملاؤه في اللجنة إلى ضرورة وجود مجلة تصدر باسمهم دورياً فأنشأوا مجلة الرسالة ، ثم أنشأوا بعدها مجلة الثقافة ، ولقد كانت المجتان تحملان رسالة الأدب والتفكير الحديث حقبة طويلة من الزمن ، وكان للفقيد مقال في إحداها كل أسبوع . ثم نشأت ظروف اقتضت احتجابهما ، فكان الأسف لذلك عاماً .

ولعل أكبر أثر خالد للفقيد هو سلسلة كتب فجر الإسلام ، وضحي الإسلام ، وظهر الإسلام ، ففيها أخرج الفقيد من ذخيرته الغنية من الاطلاع الواسع المدروس المنظم ، تاريخاً جامعاً دقيقاً للتفكير الإسلامي في عصوره المختلفة ، يجلو ما غمض من نواحيه ويحلل أسباب الضعف والقوة فيه ويعرضه عرضاً واضحاً قوياً .

وامتاز الفقيد بأسلوبه السهل الذي يخضع اللغة للفكر ويؤثر الوضوح على تعميق العبارة ، وهو أسلوب جعل العبارة طيبة له لا تقضى على إبراز ما يريد في جلاء ، من غير تصنع أو تكلف .

ولم تقف جهود الفقيد عند الكتابة والتأليف ، فقد شارك في ترجمة بعض الكتب الهامة كقصص الفلسفة وقصة الأدب .

وكذلك كان له مؤلف جهد مشكور في نشر الكتب القديمة وتحقيقها ، ككتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيذ ، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه وشرح ديوان الحماسة ، وغير ذلك من الكتب التي كانت مجهولة ، فأخرجها وأبرزها في صورة حديثة .

ويمكن القول كذلك بأنه كان وراء كثير من الإنتاج الذي لم يتوله بنفسه ، فقد كان مع إخوانه باللجنة يرسم الخطط لإخراج كتب في موضوعات معينة ، ويتخير الكتاب الملائم لذلك ، ويشرف على إنجاز هذه المهمة النافعة .

وقد تولى إدارة الثقافة لوزارة التربية والتعليم فترة من الزمن ، فكان من آثاره إنشاء الجامعة الشعبية وتشجيع التأليف والترجمة بمكافآت مالية .



أحمد أمين يخطب في الجامعة الشعبية

فهو منذ ولى الأعمال العامة دائب على نشر الثقافة ، ينشرها كاتباً في الصحف والمجلات ، وينشرها مؤلفاً لكثير من الكتب ، وينشرها مترجماً لبعض الكتب الأجنبية النافعة ، وينشرها بإخراج عيون التراث الأدبي القديمة وتحقيقها ، وينشرها بتشجيع المؤلفين والمترجمين ، وأخيراً — لا آخرأ — كان للفقيد ندوة مساء كل خميس بدار اللجنة يختلف إليها أعضاء اللجنة وأصدقاؤها من العلماء والأدباء ، وكان الفقيد واسطة الحلقة ، والرأس المنظم لما يدور بها ، وكنا نستمتع بما يفيضه علينا في تلك الندوة من آراء وأفكار وملح وأخبار .

يا أسفاه مضى ذلك !

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

شخصية أحمد أمين

بقلم الأستاذ

محمد فريد أبو هرير

عرفت الأستاذ أحمد أمين أول شبابه ، وتعودت منذ أربعين عاما أن أراه جانبا هاما من عالمي الذي أعيش فيه ؛ فنذ خلا مكانه في الحياة شعرت بأنني قد فقدت بعض عالمي .

على أن أحمد أمين كان جانبا هاما من عالم كثيرين غيري ، فقد كان يحل من أصدقائه في مثل المكانة التي حل فيها عندي ، وكان له تلاميذ لا عداد لهم بعضهم يتلقى عليه العلم في مدرسة القضاء الشرعي أو في الجامعة ، وبعضهم تلقى عليه العلم في مقالاته وفي محاضراته أو أحاديثه . وهؤلاء جميعا يحسون فقدته كما أحسه ، ومنذ خلى مكانه في الحياة يرون جانبا هاما من عالمهم قد أصبح خاليا .

ولكن أحمد أمين خلف لنا صورة باقية خالدة تتأملها كما تتأمل المعاني الأبدية ، وهي صورة لا يعتريها الفساد الذي يعتري الأجساد ولا تساورها الدوافع الدنيا التي تساور مادة الأرض . صورة هادئة يحيط بها السلام الشامل ، وتحتل مكانها بين الحقائق ، منزهة عن العواطف البشرية متجردة من الغايات والتحيز . ونحن إذ نتحدث اليوم عن أحمد أمين ، إنما نتحدث عن هذه الصورة الخالدة القيمة إلى الأبد في عالم الصور المجردة التي تتكون منها معالم الطريق الإنساني نحو الكمال . والتي تتكون من مجموعها عقائدنا ومثلنا العليا ومقاييسنا الخلقية والاجتماعية والفلسفية .

وسوف يتحدث الكثيرون عن أحمد أمين كما نتحدث نحن عنه الآن لأنه منذ رحل عن دنيانا صار صديقاً للجميع . زميلاً لأجيال كثيرة لم تخلق بعد ، يعيش معهم في عالم الصور حياة أكمل من الحياة التي كان يعيشها معنا ، ويشغل من عقولهم ونفوسهم جوانب أرحب من الجوانب التي كان يشغلها منا . وهذه الأحاديث كلها ، سواء كانت من أحاديث الأصدقاء الذين عاصروه ، أو التلاميذ الذين استمدوا العلم منه ، أو من أحاديث الأجيال العدة التي يغمرها الغيب ، تعترف اعترافاً صريحاً بأن الإنسانية مدينة له بأكبر الدين . وقد تتنوع تلك الأحاديث وقد تختلف فيها وجهات النظر وقد يشتد فيها الجدل حول الآراء التي خلفها لهم ؛ وهي في كل الأحوال تردد الاعتراف الصريح بالدين العظيم الذي له في أعناق الإنسانية .

ولست أدري كيف أشعر وأنا أكتب هذه الكلمات بتيارين مختلفين من التأثير أحدهما إحساس بالإيناس والرضا ، والآخر إحساس بالإشفاق والتردد . فأما الإيناس والرضا ، فذلك لأنني أجد في الكتابة عن أحمد أمين لوناً من الغبطة التي طالما نعمت بها في مصاحبته ومحادثته ومناقشته ومعاطاته المودة ، ولأنني أستمتع في أثناء الكتابة بتأمل صورته واستعادة ذكريات مجالسه السمحة ومواقفه الكريمة . وأما الإشفاق فذلك لأنني أتهيب الحديث عنه ، لعلمي بأن صورته التي أعرفها أبدع مما يتأتى لي ببيانه في هذه الألفاظ الضئيلة التي تعودنا أن نعبّر بها عن المعاني المعتادة والصور المألوفة : وشخصية أحمد أمين بالنسبة إلى تنطوى على معان أدق من طاقة الألفاظ على البيان ، وإذا تأملتها انبعثت في نفسي خلجات أعمق من طاقة الوصف على التحديد . ولو كان أحمد أمين رجلاً عرفته وحدي لما شعرت بمثل هذا الإشفاق ، لأنني كنت أقنع بما يتهيأ لي من الوصف والتعبير ، وحسبي أن أصدر فيها أكتب عما أستطيع ، ولكن أحمد أمين رجل عرفه جيل كامل من معاصريه في مصر وسائر الأقطار العربية ، وتحدث عنه ألوف وألوف

فى مشارق الأرض ومغاربها ، وسوف يعرفه ويتحدث عنه فى مستقبل الأجيال
ألوف وألوف أخرى فى آفاق الأرض البعيدة والقريبة . سوف تشغل أجيال من
أبناء العروبة بتراته الضخم من الفكر والأدب والعلم ، وسوف يتحدثون عنه
ويرسمون صوراً شتى لشخصيته معتمدين على الآثار التى يستمدونها من آرائه وأدبه
وطريقة بحثه . ومن حق الأمانة على أن أقول لهؤلاء جميعاً إن الصورة التى أحاول
رسمها لا تزيد على لحظة محدودة بدت لى من الجانب الذى عرفته ، وإننى أشعر
شعوراً مخلصاً بأننى لا أستطيع أن أبرز لحظى المحدودة إلا من وراء غشاء كثيف
من اللفظ الساذج الذى تعود الناس أن يصوروا فيه مشاعرهم المعتادة ، وعذرى إليهم
أننى أول من يدرك الفرق العظيم بين الصورة التى أراها فى خيالى وتذكرى و بين
المحاولة القاصرة التى تنهيا لى فى مقالى .

عاش أحمد أمين حياة مليئة خصبة ، لأنه أراد أن تكون حياته مليئة
خصبة . وقد كان من أحب كلماته إليه عند ذكر أفذاذ العطاء الذين وهبوا حياتهم
لخير الإنسانية ، أن يقول عنهم إنهم عاشوا حياة عريضة . وكثيراً ما سمعته يتعنى
تلك الأمنية لنفسه فى صوت خافت كأنه يحدث بها الأقدار فى ضراعة وخشوع .
وكان أكثر ما يحشاه فى آخر أيامه أن تمتد به الحياة طويلاً بغير أن تحتفظ بعرضها
وخصبها . فلم يرض أن يستمع إلى نصيح المشفقين عليه من الجهد وكان يحبهم قائلاً
إنه لا يريد الحياة إلا من أجل ذلك الجهد . وقد رأيت قبيلاً وفاته بأيام قلائل
وكان عند ذلك يستعد للسفر إلى الإسكندرية وهو ظاهر البشر تشتمله هزة قوية
تسبه هزات الشباب إلى التمتع بالحياة . وما كانت هذه الهزة القوية إلا من أجل
تحفزه للعمل فى أيام الصيف المقبلة ليضيف فيها إضافة جديدة إلى تراثه الأدبى الجليل .
وقد رأيت مراراً كما رآه كثير من الأصدقاء فى أيام مرضه عندما كنا نخشى
عليه فقد البصر وهو طريح الفراش ، وكان من أشد آلام المرض عليه أنه قضى
أيامه ولياليه ساكناً لا يتمتع نفسه بمواصلة العمل وبذل الجهد . وأغلب ظنى أنه

كان في ساعاته الأخيرة يشعر بسعادة كبرى إذ تبين له آخر الأمر أن أمنيته قد تحققت وأن خواتيم حياته كانت مثل أوائلها عريضة عظيمة الخصب كما كان يريد . ولم تكن حياة أحمد أمين مليئة خصبة من ناحية إنتاجه الفكري والأدبي وحدها ، لأنه كان فوق هذا قوة دافعة فذة تصدر عن حيوية فذة . وفي هذه الخصوصية وتلك القوة الدافعة تتمثل المعالم الكبرى لشخصيته كما تبدو في كل أدوار حياته .

على أنى إذ أتحدث عن هذه المقدرة العجيبة على الإنتاج وهذه القوة الدافعة التي كانت تتجلى فيه إنما أصف الأثر الظاهر الذي يبدو أمام الأنظار وما هو إلا المظهر الخارجي لتكوين شخصيته الممتازة ، وما هو إلا الفيض الغزير الذي ينبع من معين طبعه الخصب .

وقد خيل إلى عندما بدأت الحديث عن أحمد أمين إننى لن أجد مشقة في تعرف أسرار تلك الشخصية الفذة وتحديدها ، إذ أننى عرفت الرجل وخبرته وامتدت صداقتنا عشرات من السنين وقفنا خلالها في مواقف شتى تكشف عن الطباع الكامنة وتمتحن خفاياها . ولكنى عندما بدأت أجمع شوارد الذكريات لأستخلص منها الوصف الذى أطمئن إلى صدقه تجملت لى الحقيقة العجيبة التي تتجلى لنا دائماً إذا ما حاولنا أن نحدد أقرب الأشياء إلى أذهاننا وأوضح المشاعر في نفوسنا . فمن أصعب الأشياء أن نوضح الواضح في أذهاننا وأن نعبر عن الشاعر القوية الماثلة في نفوسنا . ولعل قوة الأثر الذى يقع في النفس يجعلنا لا نرضى عن الصورة التي نعبر بها عنه ، أو لعل امتزاج أحكامنا بالعاطفة القوية تجعلنا لا نرتاح إلى شئ آخر غير تأمل الشعور نفسه .

ولقد كان لأحمد أمين في نفسى مكانة كريمة منذ عرفته ، وكان له في قلبى من المودة ما يجعلنى أرى شخصيته دائماً من خلال مودتى . فهل أستطيع هنا أن أقرر أن من أبرز مميزات شخصيته مقدرته على إثارة الثقة والمودة في قلوب الأصدقاء ؟

هل يستطيع أن أقول إن شخصية أحمد أمين تستمد جانباً كبيراً من قوتها من ذلك النبع الإلهي الذي يوحى بالآلة ؟

كان أحمد أمين يتوسط أصدقاءه وكأنه مجرد من نفسه لكل منهم شخصاً يناسبه ويلائمه ، وإن كان الأصدقاء أنفسهم يختلفون فيما بينهم في الطباع والميول . وقد كان لهذه المقدرة على الألفة والإيحاء بالثقة أكبر الأثر في قوته الدافعة التي كانت دائماً تؤثر فيما حوله . كان دائماً يتعاون ويثير فيمن حوله روح التعاون ، وكان دائماً صادقاً مخلصاً ويثير فيما حوله روح الصدق والإخلاص . وكان صريحاً عادلاً ويوسع صدره دائماً للصراحة والعدالة .

وكان يقدس الحق ويدعن له مسرعاً راضياً ، حتى لقد كان في بعض الأحيان يرتد من طرف في الرأي إلى الطرف الآخر إذا ما تبدى له وجه الحق عند المناظرة . ولكنه كان في الوقت عينه يتطلب الحق فلا يتساهل فيه مادام قد احترمه مع غيره .

اجتمع في يوم من الأيام في مجلس الجامعة وكان من أعضاء المجلس رئيس وزارة سابق وهو (باشا) معروف بشدته وجفاء معاملته . وثارَت مناقشة في المجلس فأخذ الباشا يتحدث وكان في حديثه شيء لم يعجب أحمد أمين فاندفع يقاطعه . فتوقف الباشا عن الكلام واتجه إليه قائلاً « أرجوك ألا تقاطعني » فخفض أحمد أمين للاحق واعتذر حتى انتهى الباشا من حديثه فشرع يرد عليه بمحبته . وفيما كان مستمرا في كلامه اندفع الباشا يقاطعه . فتوقف هو لدوره واتجه إلى الباشا قائلاً « أرجوك ألا تقاطعني كما رجوتني ألا أقاطعك » فلم يسمع الرجل إلا أن خضع واعتذر .

ولم يكن ذلك دأب أحمد أمين في حلقة أصدقائه خاصة فقد كان دائماً يوحى بالثقة والمودة إلى من حوله . وكان دائماً يبعث الحركة فيما حوله . وكان في بعض الأحيان يندفع مع صراحته إلى شيء يشبه العنف ، ولكنه لم يخرج من أحد هذه

المواقف العنيفة بخدش في الثقة أو المودة ، إذ كان إخلاصه وتقديسه للحق والعدل يمحوان كل ما في صراحته العنيفة من صرامة . ولست أذكر أنه اتصل بعمل من الأعمال ولم ينفخ فيه روحاً قويا ويدخل عليه إضافة جديدة قيمة . فعندما كان في مدرسة القضاء الشرعي مدرسا ناشئا ، كانت في مدرسة القضاء حركة حية له منها قسط وافر وعندما صار رئيسا للجنة التأليف والترجمة والنشر صار منها بمثابة المحرك القوي الذي لا يعرف الفتور ، ولما عين مديرا عاما لإدارة الثقافة العامة بوزارة المعارف جعل من إدارته أداة للإشعاع والتحريك في نواح عدة وأنشأ الجامعة الشعبية ، ولما صار مديرا للإدارة الثقافية بالجامعة العربية كان له في كل يوم فكرة جديدة وعمل إنشائي طريف ، والثقافة العربية مدينة له أكبر الدين بمشروع إنشاء مكتبة من الأفلام الصغيرة التي تسجل فيها نفائس الخطوط ونوادير المؤلفات العربية القديمة . كان له معين لا ينضب من التجديد والابتكار ومن ورائه عزيمة قوية لا تعرف التردد . وقد كنت أعجب كثيراً مما كان يبدو لي فيه مما يشبه التناقض بين مظهره الوديع وجانبه اللين وبين إرادته القوية التي تكاد تكون صارمة . كنت أراه كما يراه أصدقاؤه جميعا هادئا سمحا عذبا ، فإذا ما بدا له وجه الحق في أمر من الأمور لم يخرج عن هدوئه وسماحته وعذوبته ولكنه كان يمتضى في سبيله كأصلب ما يكون إرادة . كان لا يحب التردد ويقول أحيانا إن المضي في تحقيق الغاية وإن كان مع الخطأ خير من التردد والتزعزع وإن كان ذلك لتحرى الصواب . ومع هذا فقد دلت التجربة الطويلة على أنه كان في عزماته يصدر عن طبيعة كاشفة موفقة .

ولست أدري على وجه التحقيق ماذا كانت فلسفة أحمد أمين في الحياة أو بقول أدق كانت له فلسفة خاصة لا تشبه في شيء مذهباً قائماً بنفسه . كان عظيم البشر مرشح النفس ولكنه مع هذا كان شديد الجدول ولم يخل من بعض التشاؤم . وكان زاهداً في مظاهر الحياة ولكنه لم يكن رواقياً ، وكان يأخذ الناس كما يجدهم ولا يكلف

الأشياء ضد طباعها ولكنه مع هذا لم يكن واقعيا عمليا بمعنى الفلسفة الواقعية بل كان يؤمن بالقيم الأخلاقية والمثل العليا. وكان يميل إلى التفاهم على الحلول الوسطى في شئون الحياة ولكنه كان لا يتساهل في معاني الكرامة والنزاهة والبرودة. كان كريما إلى أبعد حدود الكرم ولكنه مع هذا كان لا يحب الإسراف. كان متدينا أعمق الإيمان ولكنه كان يفسح عقله للمناقشة الحرة إلى أبعد حدود الحرية. كان يقدس المنطق ويتحكم في عواطفه ولكن قلبه كان يتقد حرارة ولا يكبح قلبه عن نبضات العواطف. كان يحب التمتع بالحياة ولكنه كان متواضعا إلى أقصى حدود التواضع ولكنه كان أحيانا يتعالى إلى حد الكبرياء. كان ينهى على الأسد سطوته ولكنه يرثى للأسد الجريح. ومن أجل هذا كله خيل إلى أنه صاحب فلسفة خاصة حدد بها حياته ولكنها فلسفة تجمع أشئانا من المعاني لا تأتلف إلا في شخصه. وكانت فيه طيبة تتمثل في بساطة مظهره وبساطة معشره وبساطة نمط حياته، وكانت تتمثل في بساطة تفكيره وبساطة أسلوبه في العمل، ولم تفارقه هذه الطيبة بما فيها من مظاهر البساطة منذ شبابه إلى آخر حياته.

ومن آثار تلك الطيبة السهلة أنه كان لا يعبأ كثيرا بالأوضاع المألوفة، فلم يحور يوما من مسلكه ابتغاء مرضاة غيره. كان عميدا لكلية الآداب وقت أن كان الحكم في يد حزب قوى لا يقف شيء أمام سلطانه الساحق. ولما تعارض مسلكه وأسلوب فكره مع المسلك الذي تريده وزارة ذلك الحزب لم يتردد في الاستقالة. ولكنه لم يلفت الأنظار إلى استقالته كما تعود غيره حتى كاد أصدقاؤه أنفسهم لا يظنون إلى عزيمته. ولما ناقشه بعض أصدقائه في ذلك لم يزد على أن أظهر دهشته من أن الأمر لا يستحق أن ياتنفت إليه أحد. ولم يكن يأخذ في اعتباره عند الحكم على الأشخاص ما يكون لهم من المسكاة الاجتماعية، وكان يقيم أحكامه على أساس واحد يستمد من القيم الإنسانية المجردة من المظاهر

المصطدعة . وما كان ينكر شيئا مثل إنكاره ما يطرأ على الناس من تغير إذا بلغوا شيئا من الجاه أو السلطة ؛ ويرى ذلك علامة على فقدان الأصالة في الشخصية . وإنه لمن الإنصاف له أن أقول عنه أنه كان من أصدق الناس أصالة في شخصيته . رأيت منذ أربعين عاما لأول مرة فرأيت شابا طويلا يسير متمهلا وينطق متمهلا بصوت هادئ فيه نغمة تنم حركة وحرارة ، وتميز نطقه لثغة بالراء تكسب ألفاظه رخامة وكان يلبس منظارا سميكاً تبدو من تحته عيان تشعان طيبة وبساطة . وكان يلبس زى الشيوخ ويتخذ لنفسه حلية خفيفة لأنه تخرج في مدرسة القضاء . الشرعى وكان عليه أن يلتزم الحدود التي يلتزمها علماء الدين في مظهرهم .

ولست أذكر أنى رأيت يوما يختار لونا من الألوان الزاهية التي كانت تميز زى الشيوخ في تلك الأيام ولسكنه مع هذا كان يبدو أنيقاً من أثر الانسجام بين هدوء طبيعته وهدوء ظاهره .

وتوثقت المودة بيننا شيئا بعد شيء على مر الأيام وأخذت أعرف حقيقته شيئا بعد شيء . وإنه لمن أعجب الأمور أن يتأمل الإنسان ذلك الشاب الشيخ منذ أربعين عاما ثم يتأمله في آخر حياته بعد أن تم نموه وكتلت شخصيته ، فلا يكاد يرى فرقا بين الحالين في كل ما هو جوهرى في الشخصية . وما ذلك إلا لأن أحمد أمين الشاب كان ينطوى على طبائع أصيلة تطورت ونمت ولسكنها بقيت محتفظة بكيانها وجوهرها .

وكان من تمام أصالة أحمد أمين أنه لم يعتمد في حياته على شيء سوى أصالته ، وقت أن كان الكثيرون يعتمدون على مناصرة الأقوياء أو معاونه الأولياء . فقد شق أحمد أمين طريقه وحيدا فردا . بدأ معلما في مدرسة القضاء فقاضيا فمدرسا في الجامعة فاستاذاً ، ثم تنقل في درب البحث العلمى والأدبى وأنتج ما أنتج غير معتمد على شيء سوى أصالته . لم يكن يعرف لغة أجنبية فوجد أنه يحتاج إليها فعكف على دراستها حتى استطاع أن يفتح مغاليق المراجع الانجليزية ويفتقر

منها ما شاء من مكتبة غنية اقتناها لنفسه . ولما بدأ التدريس في الجامعة لم يكن قد تخصص في دراسة الأدب واللغة إلا بمقدار ما يتخصص فيها طالب الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى ، ولكنه شق طريقه حتى لمع اسمه كأستاذ فذ تفخر به الجامعة . وكان يقدم في كل الميادين التي عمل فيها على مشروعات جديدة لم يحاول أحد من قبله أن يقدم عليها ، فإذا هو يشق فيها طريقه قويا ويخلف منها عملا ضخما قويا . ومع كل هذا كان أحمد أمين يبدو هادئا متسهدا كأنه لم يشق طريقه في الصخر حتى يصل إلى القمة التي لا يصل إليها سوى أفذاذ البشر ، وما ذلك إلا لأنه كان يحس في أعماقه أنه لم يبلغ سوى مرتبة طبيعية كان لابد له أن يصل إليها . كان مثل الشجرة الطيبة التي نقل في نموها إلى مسارح السحب ولا تستطيع إلا أن تبلغ إلى تلك الغاية في نموها ، لأنه كان أصيلا في شخصيته الضخمة مثل الشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء .

صورة احمدسين

بقلم الأستاذ

محمود نبور

أ كنت سائرا ضحوة يوم في شارع « قصر العيني » فصادفت امرأة يعبر الطريق ، وهو يسارق الخطا ، هين المشية ، خاشع البصر ، يتلفت في مراقبة ، وحذار ، كأنما يستخفي عن أعين الناس ؟

لوتاح لك أن تصادف امرأة هذه صفته ، لجري في خاطرك على الفور أنك ترى رجلا من أولئك الذين نعتهم بطيبة النفس ، وصفاء النية ، والكف عن الضرب في غمرات الحياة ، ولحدثتك نفسك بأن هذا الرجل يستوحش من الدنيا ، كأنه بين أهلها غريب !

ولعلك لا تلبث أن تجد الرجل قد أثار بين جوانحك عاطفة من التوسم له ، والتعرف به ، فإذا أنت متأثر خطاه ، تريد استطلاع أمره ، يحدوك إلى ذلك ما تلمح من سمت غير مألوف .

وما هي إلا أن ترى الرجل قد عرج على دار « المجمع اللاغوى » وأخذ يتسامى على سلمه ، متلقيا بمن حوله تحايا الاستقبال ، وهو يردّها بأحسن منها في وداعة محبة تجلوها ابتسامة خفرة ، وأنت لتجده يسخو بهذه التحية لمستقبله من الكبراء وغير الكبراء بدرجة سواء .

ويستهويك ما تشهد من أمر الرجل ، فتتابعه في مسيره ، حتى يسلمك إلى قاعة مديدة تغص بمنضدة مبسوطة ، قد ترصصت عليها كتل من الأسفار ، ما أشبهها بجحاجم أثرية ضخام !

وثمة ترى صاحبك قد أوغل في القاعة ، حتى إذا بلغ منها مكانا قصيا ،
اتخذ مجلسه في سكينه وركون ، كأنه يخشى أن يشعر بمقدمه أحد ، وما أسرع
أن يمد يمينه إلى سفر من هذه الأسفار ، فيقلب في صفحاته لحظات ، ثم يمسك
عنه ، وقد تكش في مجلسه وأطرق ، حتى لتقول أغفى !

وتعمر جوانب القاعة بالقصاد ، ويكتمل الجمع ، فيتجاذب الرفاق أطراف
النقاش ، وتدور بينهم معركة الرأي حامية الوطيس ، وصاحبك على حاله ، لا تنبس
له شفة ، ولا يطرف له جفن ، فتحسب أنه ساه عما حوله ، لا يجري شيء منه
بباله ، فتتركه وشأنه ، ويشغلك التحاور والجدال . وفيما أنت كذلك إذ يداعب
سمعك صوت يختلج مترفقا يحاول أن يجد له طريقا في ملتطم ذلك الزحام ، وإذا
تبينت القائل عرفت أنه صاحبك المنطوى على غفوته ، فتأذن له وأنت عليه
مشفق ، فيروعك أنه قد استبطن الصميم من البحث ، وأنه يجمع لك في فقرات
ما تشعب من أطراف الرأي ، ولا يهتم أن ينتهي بك إلى حكم تأنس إليه النفوس ،
وتضيق به فسحة الخلاف !

وتظل مسحور السمع بهذه المساجلات الطريفة التي تصطرع فيها عقول ،
وتستطع بدائه ، غافلا عن استشارة تلك الساعة العتيقة التي تبرز على حائط القاعة
وما أنت لو استشرتها بمستفيد ضبطا لوقتك ، فإنما هي ساعة مجمعية ، كأنما أعليت
في مكانها لتستهزىء بدورة الفلك ، وتسخر من حساب الزمن .

ولتجدن المناقشات قد تناوحت يمنة ويسرة ، ولربما اشتد اشتباكها واحتد ،
وأنت معقود العين بصاحبك ، تقفو مشاركاته فيما يترأى من وجهات
النظر ، فإذا بشخصيته تتوضح لك شيئا بعد شيء ، وكأنك تجتلي كتابا شائقا جد
شائق ، كلما قلبت من صفحاته ازدادت به من تعلق ، وطمحت منه إلى جديد !
إنه في شتى مناقشاته ومناقلاته لا يفارق سمته ، فهو أبدا هادي القسما ،

رفيق الإشارة ، أريحي الروح ، يتميز بذلك الصوت المحتلج الحى . . . ولكنك تستبين من وراء ذلك كله إيماناً منه بفكرته ، وثباتاً فى تعزيزها ، ولباقة فى الدعوة إليها .

وإذا بهذا الرجل الذى رأيته أول ما رأيته متكشاً مستوحشاً ، فحسبته ممن لاحظ لهم فى معتزك الحياة — قد تفتق إهابه عن زعامة بصيرة قادرة تنتهج لها طريقاً لا عوج فيه .

وتعجب لصاحبك ، وقد استحر نقاشه ، وجعل يطارح رفاهه مصطلحات العلم فى صلابتها وخشوتها ، إذ تراه وقد دس بين هذه الصخور والجنادل — فى الفينة بعد الفينة — ملححة فكهة ، أو مزحة طريفة ، لا تلبث أن تشيع فى جو المجلس نسمة من الطرب والمراح . فتعلم أن صاحبك على وثاقة علمه ، وأصالة وقاره ، يجيد ما يجيده « ابن البلد » من خفة وإيناس ، فهو يحسن أن يستخرج من اللفظة الجافية « لابن سيده » أو القاعدة المعقدة « لسيبويه » نكتة ضاحكة ، أو دغابة لطيفة ، تحيل تلك الجنادل والصخور رياضاً حالية بالنضرة والازدهار . . .

ولا يكاد ينتهى بك المجلس الأول فى صحبة الرجل ، حتى يفريك ما استبان لك من أسره بأن تطلب المزيد .

* * *

إذا جاز لنا أن نوجز وصف « أحمد أمين » فى كلمة ، قلنا : إنه « بناء » ! ولقد ملكت هواه نزعة البناء والتشييد ، وأولع بها أيما ولوع ، فوقف عليها فكره وجهده ، تارة يزاول ويمارس ، وطوراً يشرف ويرعى ، وحيناً يحض ويدعو .

وخير ما يمتاز به هذا « البناء » فى نزعته ، أنه اجتماعى عصرى ، وأنه واقعى عملى ، إذا عنت له فكرة رسمها فى ذهنه أدق رسم ، وجعل لها خطة محكمة ، وقدر

لها كل ما عساه يكون من أقدار . ولا يكاد يد يد له ليضع الحجر الأساسى لهذه الفكرة ، حتى يكون قد استوثق من الأمر غاية الاستيثاق ، وأحاطه بما يكفل له الرسوخ والشموخ ، فإذا البنيان تعلودعائمه ، وإذا هو حصن للقرايح والعقول .

وعبقريه هذا « البناء » العظيم تتمثل فى أنه يجعل لنزعتيه طابعاً من التجديد ، لا مغالاة فيه ولا انسلاخ . فهو إذا شيد التمس لأساس بنيانه عتاداً من كنوز الشرق وأعجاده ، ولكنه يقيم على هذا الأساس طرازاً تتوافر له كل مزايا التحضر العصري والعمران الحديث .

وهذا « البناء » العظيم يرمى دائماً من وراء سعيه إلى هدف مقصود ، ذلك أن له رسالة إصلاحية واضحة ، يبتغى بها تجديد العقلية العربية ، وإمدادها بما يعينها على ملاحقة الزمان فى سيره الخثيث .

حول محور هذه الرسالة الإصلاحية يدور فكر الرجل ، ولا يمل أن يدور . وكأن هذا المحور مغزل يستمد منه الخيوط لينسج منها أعماله ومساعيه ونفحات قلبه .

أقرأ كتابه « فجر الإسلام » وصنويه : « الضحى » و « الظهر » تجده يؤرخ الحياة العقلية للمسلمين فى مواضى الخقب ، ولكنك تستطيع أن تلمح خلف مظاهر البحث والدرس لوامع تلك الروح الأصيلة ، روح الدعوة إلى الإصلاح ، والتوجيه إليه ، إذ هو يجلو لك منهاج الفكر العربى فى تطوره وسموه ، ويميط الغبار عن معالمه ، ويريك الضوء من مصابيح .

ولم يكن عجباً أن يشغف الرجل بدراسة القادة الأعلام الذين هم طليعة النهضة فى الشرق الجديد ، وإن كتابه « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » ليكشف لك أن الرجل يعنى أكبر ما يعنى فى تاريخ أولئك القادة الأعلام وتصوير حياتهم بإبراز ما كان لهم من جهود فى سبيل النهوض بالعقلية الشرقية ، وفى نشر رسالة التجديد .

وإليك كتابه « فيض الخاطر » ، لكأنه « فلم » سينمائي تتوالى فيه الصور والمشاهد « فيلم » تنطبع عليه استجابة ذلك « البناء » الداعى إلى الإصلاح لكل ما يلابسه فى الحياة والجمع . وإنما لصور شائقة ، ومشاهد رائعة ، تأنس فيها قبسة من الفن فى العرض والتعبير ، حتى لندھش إذ تتجلى لك — فى شخصية هذا العالم الدارس — صبغة الأديب الفنان .

وأنت لو تصفحت مختلف الجوانب من شخصية « أحمد أمين » لطالعت عينك صورة قاض تتوضح فيه نزعة القضاء بأوفى ما فيها من خلال الدقة والوزن والنظام وأكرم ما فيها من خصال النزاهة والعدالة وبقطة الضمير .
إنه قاض فى خاصة شأنه مع نفسه ، قاض فى حديث مجلسه ، قاض فى الجامعة وأستاذًا على مكتبه رئيس عمل ، قاض فى معاملاته مع الناس بين قريب وبعيد ، قاض فيما يجرى به قلمه من مباحث ودراسات وخواطر . . .
وقد عرفت الأقدار نزعته القضائية فى بواكيرها ، حين شب شبابه ، فأرادت له أن يكون أحد قضاة الشرع ، يفصل فيما هنالك من خصومة ونزاع . . .
ولكنه لم يكتف فى منصب القضاء طويلا ، فترك الميدان المحدود ، ليكون قاضيا طليقا لا تقف به قيود المهنة عند غاية ، ولبث فى دنياه ، على اختلاف مناصبه وتنوع مجالات نشاطه ، تملكه نزعة القضاء ، وتهيمن على فكره ما وسعها أن أن تهيمن .

وهذه النزعة القضائية قد وسمت حياة الرجل فى مناحيها العقلية والاجتماعية بسمة الاعتدال . . . فهو معتدل أبدأ فى تقديراته وأحكامه ، معتدل أبدأ فى علاقاته ووشائجه ، لا يجمع فى القسوة ، ولا يترأخى فى اللين . يحب حين يحب هونا ما ، ويبغض إذا أبغض هونا ما . أنأى ما يكون عن التعصب والتحزب ،

آنف ما يكون للسرف والتطرف ، أميل ما يكون إلى المودعة والحسنى !
والعجب العاجب فى شخصية « أحمد أمين » أن نشأته قد اكتنفها كل
دواعى التحفظ ، من معتقدات راسخة ، وتقاليد صارمة ، وتعاليم جامدة ...
ولكن فكره توهج والتمتع وسط ذلك كله ، كما يتلأأ الجوهر النقى ، وخرج
يلتمس الطلاقة فى الأفق : الأفق الرحيب . فإذا التمسنا الآن حرية الفكر بين
القادة الأعلام ، ألفيناه منار الطريق .

محمد أمين ... الكاتب

بقلم العلامة

الأديب مصطفى السرايى

رحم الله الأستاذ العلامة أحمد أمين فلقد قضى عمره فى خدمة آداب لغتنا الضادية المضرية ؛ وترك لأبناء يعرب ثروة من المؤلفات النفيسة ، ستبقى حية يتناقلها شبابنا المتقف جيلا بعد جيل .

فأى شاب عربى من المتأدبين لم يطالع مجلدات تلك السلسلة الرائعة من تاريخ الأدب العربى التى تبدأ بفجر الإسلام ، وتنقل إلى ضهى الإسلام ، وإلى ظهر الإسلام ، وكلها كنوز من المعرفة كتبت بأسهل لسان ، ونقلت عن أصح مصادر ، واشتملت على أدق الآراء العلمية .

وأى متأدب عربى لم يقرأ مقالاته وأبحاثه الأدبية والاجتماعية والخلقية فى مجلة الرسالة ، ثم فى مجلة الثقافة ، وقد تألف منها ذلك السفر النفيس المسمى فيض الخاطر فى تسعة أجزاء .

ومنذا الذى لم يقرأ كتابا من مئات الكتب التى نشرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وهى اللجنة الشهيرة التى يدير شؤونها رهط من الأدباء والعلماء ، والتى مكث الفقيد رئيساً لها من الزمن كادت تبلغ أربعين سنة .

وهناك كتاب « الأخلاق » طبع خمس مرات ، وهو يعد من أجل الكتب فى باب ، وكتاب « حياتى » صور فيه حياته وحياة رجال عصره وبيئته أجل تصوير . ثم هناك مشاركته للدكتور شوق ضيف فى تحقيق الخريدة للأصفهاني وللأستاذ أحمد الزين فى تحقيق كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدي ، وفى تأليف قصة الفلسفة اليونانية مع الدكتور زكى نجيب محمود وقصة الفلسفة الحديثة فى

جزاين ؛ وقصة الأدب فى العالم فى أربعة أجزاء ، وهناك دروسه فى النقد الأدبى بكلية الآداب وقد نشرها فى جزاين إلى آخر ذلك المنتوج الأدبى والعلمى الذى خلد اسمه فى عداد كبار أدبائنا العاملين المجدين .

والنقيد مصرى صميم يقول فى كتاب « حياتى » إن أباه كان فلاحاً من مديرية البحيرة ، هجر القرية إلى القاهرة ، هرباً من الظلم والسخرة ، والتحق بالأزهر ، ثم كان مصححاً بالمطبعة الأميرية ببولاق ، وجعل ينسخ المخطوطات ويجمع الكتب ، فنشأ ابنه أحمد أمين بين الكتب والقرايطس والحبار .

وكان من الأمور المألوفة فى حادثة أحمد أمين أن يدرس هو وأمثاله فى كتاب أو فى مدرسة ابتدائية ، وأن يلتحقوا بعدئذ بالأزهر حيث يقضون السنين الطوال فى دراسة العلوم الدينية والعربية . وسار النقيد هذه السيرة . ولكنه ما لبث طويلاً فى الأزهر ، فلقد نجح فى دخول مدرسة القضاء الشرعى ، فتخرج منها ثم عين قاضياً شرعياً .

ومن الغريب أنه تعلم اللغة الإنكليزية على معلمة من بنات الإنكليز كانت تسكن مصر ، وراح يطالع العلوم الحديثة ومؤلفات المستشرقين بهذه اللغة ، ولذلك عد من أدباء مصر القلائل المشهورين الذين تثقفوا بالثقافتين العربية والغربية ، فكان لهم أثر محمود فى نهضة الأدب العربى فى العصر الحاضر .

ولم يمكث النقيد مدة طويلة فى القضاء ، فقد كلف منذ سنة ١٩٢٦ بتدريس الأدب العربى فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، فراح يلقى على طلابها دروساً فى النقد الأدبى ، كما راح يهيبُ عدداً من مصنفاته المعروفة . وقد واثته بيئة الجامعة ، ووجد فيها مجالاً واسعاً للمدرسة والتأليف ، فكان فى الكلية أستاذاً ، وعميداً مدة من الزمن ، ثم منحه مجلس الجامعة لقب دكتور فخرى فصار يسمى الدكتور أحمد أمين . لقد كان رحمه الله من أساطين النهضة الأدبية فى هذا القرن ، سواء أفى لدروس التى ألقاها فى كلية الآداب ، أم فى تصنيف الكتب الممتعة ، أم فى رياسته

للجنة التأليف والترجمة والنشر ، أم في اشتراكه في أعمال مجمع اللغة العربية ، أم في بحوثه في مؤتمرات المستشرقين ، أم في أحاديثه بمحطة الإذاعة المصرية والشرق الأدنى ، أم في رياسته للإدارة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية .

عرفته منذ نحو ربع قرن يوم زارنا في المجمع العلمي العربي بدمشق مع لفيف من طلاب كلية الآداب . ثم توثقت عرى الصداقة بيننا في رحلاتي إلى القاهرة . وأهديت إليه معجمي ، وأهدى إلى ثلاثة من كتبه ، وكلما كنا نجتمع كنت أجذفيه انخلق الرضى ، والعقل الراجح ، والثقافة الواسعة ، والفكر النير ، والحرص على إحياء تراث الأجداد ، وعلى تربية النشء العربى ، تربية قوامها التحلى بالأخلاق الإسلامية الفاضلة ، ومحبة الوطن ، وخدمة الملة خدمة صادقة بعيدة عن الأثرة .

أذكر أننى سألته مرة : لماذا لا يعنى في مؤلفاته ومقالاته بالمبنى بقدر عنايته بالمعنى ؟ فتبسم وأجاب قائلاً : هذا هو أسلوبى فى الكتابة ، ولكل كاتب أسلوبه ، فأنا يهمنى أن يفهم القارئ من أبناء هذا العصر مواضيع كتبى ، ولا يهمنى أن يتعلم البيان منها .

وهكذا كان أسلوبه فى الكتابة سهلاً مبسطاً ، حتى أن القارئ المتوسط الثقافة ، لا يلاقى أدنى مشقة فى فهم مختلف الموضوعات الأدبية والاجتماعية والخلقية التى صنف الفقيده أو حاضر فيها .

لم يخدم الفقيده المبرور أبناء مصر الشقيقة وحدها ، بل خدم متأدبى البلاد العربية كافة . وما من متأدب زارنى بدمشق بعد وفاته إلا وجدته حزيناً على فقده .

رحم الله الأستاذ أحمد أمين فقد أدى فى حياته ما عليه من واجب للوطن العربى ، وأدى بكتبه الخالدة واجبه بعد مماته . . .

لمحات من محمد أمين

بقلم السيدة

وداد ط كيني

حزنت من أجله قبل موته فقد أحسست اقتراب أجله ورحيله ، يوم رأيته للمرة الأخيرة في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، حيث احتفلت هيئته بانتخاب صديقه توفيق الحكيم في عداد المجمعين ، وكان أحمد أمين يحب فن الحكيم فلم يتخلف عن حضور الحفل البهيج ، على الرغم مما كان يعاني من وهن في جسمه ، غالب ضناه بالتجلد والتحمل .

لقد أقبل ببطء الحركات فاطر المحات وقور الطلعة ، فدعوته للجلوس بجني ، وما كاد يراني ويعرفني حتى حمد لي ما كتبت عن آخر^(١) مؤلف له ، وهو « قاموس التقاليد والعادات والتعابير المصرية » .

كان مجلسه يومذاك على تحوم الدنيا مشرفاً على عالم آخر ، طالما دومت روحه في آفاقه باحثة عن الخلود والخالدين ، باعثة آثارهم وأخبارهم في كتبه ومقالاته ، وقد عجبت لذلك البرزخ الذي جلس فيه أحمد أمين يشهد انتظام صديقه الحكيم في سلك الأعضاء المجمعين ، وكأنه جاء مودعاً وفي المجمع صحبه وأنداده ، فلم يشأ أن يغادره ويفوته آخر مجلس فيه قبل أن يلقي نظراته الأخيرة على هؤلاء الذين سلك العمر معهم بين مطارحات الفكر والنقد ، ومجالس الثقافة والأدب .

كنت أرنو إليه مشفقة متأسفة ، وقد وهى جسمه وكل بصره وارتعشت

(١) نشر بعد وفاته كتابه « بين الشرق والغرب »

يداه من مجهود طويل لا من هرم ، فكان مثل الشمس في الأصيل ترمى بشعاعها الوانى وهى توشك على الغروب ، فما أقسى ما تصنع نواميس الحياة ! إنها حتم على الجميع ، ولقد قيل فى الأثر « كل امرئ ما يحسن » فليت حوادث الدهر سكبت بقسطاس ، فتجاوزت عن المحسنين الأفذاذ الذين منهم أحمد أمين ، وليس هذا منى معارضة أو تجانفاً لكنه تظلم وابتئاس ، من أجل أناس تفردوا بمزايا ومواهب لم تكن إلا فى الأقلين عدداً ، ممن يظهرون على أطراف السنين ، فلورأينا هذا الفقيد الحميد من نشأته إلى مماته مثلما نرى شريطاً سينمائياً ، وهل كانت الحياة فى حقيقتها إلا من هذا القليل ؟ لقلنا أين نحن الآن من أحمد أمين ؟

إنه أصبح يجثمانه فى عالم العدم ، إن صح أن يكون للعدم عالم ، ولم يبق إلا ذكره وأثره فيمن خلف وفيما أبقي من مؤلفات قيمة ومشاركة فى البناء والتهديب ، ورسالة علمية يؤديها من بعده كل من اهتدى بهديه ، واقتدى بكفاحه وسيرته من تلاميذه وصريديه .

تساءلت هذا التساؤل لأتقصى مراحل البناء والإعداد فى هذا العالم الأديب ، فهو لم يبن بيسر وطفرة ، وإنما بنى بزيت الليالى التى طالت وترجرت مصابيحها على دفتاره وأوراقه يحبرها ويحررها بدقة ومعرفة وتمكين ، ولقد أنشأ نفسه الكبيرة بعلم وحذق ومراس فى طويل الأيام والأعوام ، حتى أعطى الزمان فيه ذلك الإنسان الموهوب الدؤوب ، الذى ملأ دنيا مصر والإسلام بذكره وخبره ، وأقبل عليه طلابه وعارفوه مثل إقبال العطاش على النبع الروى الفياض .

ولئن أوتى راحة وخصباً ورأيا فإن هذه الميزات شغلته طوال عمره وجعلته لا يستريح ، فقد عاش باحثاً محصاً يؤلف الكتب ويلقى المحاضرات ويعمل الخواطر حتى آخر لحظة من حياته ، وكان يحمد لربه حين دهمه الداء منذ بضع سنوات أن أبقي عليه سلامة الفكر والمنطق ، ولما تجنى عليه كبير العلماء فى دمشق نشر

فى « الثقافة » مقالاً عنيقاً دافع فيه عن نفسه معتصماً برجاحته وكرامته ، مشفقاً على ظالمه من جموح الرأى وهياج الأعصاب .

أما عقله وعلمه فكانا يظهران من بين سطوره وآثاره ، ظهور النجوم فى صفحة السماء متلاثلة ساطعة ، ولو أن نصيبه جرى فى الفلسفة وحدها فتمرس بها واختص بدراستها ، لكان أحد أساطينها فى العصر الحديث ، فقد اتخذ المنطق عدّة فى تأليفه وتصنيفه ، ولهذا ظهر فى أحكامه الأدبية التحديد والاستقصاء فى تثبيت وتجرد ، فلم يمل مع الهوى ولا انحرف عن الغاية العلمية بل اتخذ الحقيقة هدفاً ومراداً ، وحين صور الحياة العقلية فى فجر الإسلام ، وفى ضحاها وظهره ، وفى يوم الإسلام وغيره ، أعطى أحمد أمين مثالا للعالم الثبت الذى لا يعبأ برضى طائفة دون طائفة ولا بقوم دون قوم ، ولو بقى وحده فى صف واحد والعالم جميعاً فى صف آخر ، وقد جر عليه هذا المذهب تعباً وغضباً ، فلم يأبه للناقمين والمتعنتين لكنه بات حزيناً لأنهم لم يفهموا عنه مقاصد قوله وتأويله ، وما قدروا الحرية والسلامة فى كلامه ومرامه ، فهو لم يبتغ زلفى ولا ذكرى ، ولا داور أو غالط فى موضوعات شائكة بل تجرد لها وخاض فيها ، غير متعصب ولا متحرج ، وخرج منها بما ارتأى واستنبط من حكم وتقدير مطمئناً مقررأ ، ولا بد من يوم قريب تواعدنا فيه قبيل وفاته بمقال أزعج بالحجة والبرهان ما ثار من غبار حول آرائه الجريئة التى لم يتقبلها كثير ممن خالفوه وناقدهوه ، وما كان يرحمه الله متأيماً على الحق ، فإذا لاح له الصواب عاد إليه راضياً مغتبطاً .

على أن المتتبع لحياة الفقيه وسيرته ، كان يشهد اتجاه تفكيره وشعوره ، فلم يكن على تعمقه فى الأمور وشدته فى الحقيقة غليظ القلب متعنتاً أو قاسياً ، وإن غلب عقله دائماً ، بل كان مترقفاً بالضعيف عف اللسان والقلم يستجيب للمستجير والمضيم وملتمس العون العلمى والتوجيه فيساعده ويغيثه لكنه يعود إلى حرية الفكر والرأى التى آثرها فى حياته ووجهته ، فيرضى نفسه ومنهاجه ، بنصيحة يسديها

أو كلمة يسدد بها خطة أنجزها لباحث أو دارس ، ولم يجعلها حجة له أو مجازاً ، ولن ننسى ما اتفق له حين استجاره طالب سورى للدكتوراه حذب عليه وأغاثه ، ولما كان الغد نشر الدكتور أحمد أمين فكرة الأسبوع بمجلة « الثقافة » وفيها رأيه الصريح يبحث الطالب لثلاث يحسب العون رضى فيخامره الغرور .

وكان هذا دأبه في حرية الحكم على الدراسات الجامعية والفكرية ، نصيحاً في نقده صريحاً في تعبيره ، وهو على جده ووقاره كان لا يتخرج من نكتة يزجها في الحوار والامتحان ، يخفف من جفاف المناقشة والمطارحة .

وقد كتب تحت صورته في شبابه وهو بعمامته أمانته في الوجود بأن يكون نافعاً لغيره ، وكأنه رسم إزاءك ناموس عمره ومنهجا علمه وعمله ، فما انحرف ولا تعسف ، وما زاغ ولا راغ ، وكان أول آثاره في « الأخلاق » فدعا إلى التمس بها في المعاملة والمعيشة في البيت والمجتمع ، وقد تجافى عن التشدق والتأنق ، ففضل البساطة في الأداء والمظهر عن طبع وحرية ، ولم يعرف عنه الملق لحاكم أو الزلفى لطاغية أو خطير ، كما تورط كثير من الأدباء والمؤلفين الذين تنصلوا مما صنعوا في العهد السابق تكلفاً أو طوعا ، وقد سألته مرة وكان منشراحا للجواب : لم أجد فيما نشرت مديحاً للملك المخلوع لا بسانحة عيد أو ميلاد ، أو حفل عام .

فتبسم يرحمه الله ابتسامة طفل وديع وقال :

... مرة واحدة ، فعلتها على الرغم منى ، فكانت كلمة باردة جافة ، فيها

تكلف يخالف طبعي ، فلما قرئت ظهرت جسما من غير روح ، وانكشفت فيها حقيقتي بالتأني على غير ما أومن به وأعتقد ، فأهملت الكلمة ...

ووفى أحمد أمين بعهده وبرّ بنذره فوهب علمه وجهده للجامعة والحياة الفكرية فكان نافعاً موجّهاً أفاد الألوف من الطلاب والمتأدبين بمصر والبلاد العربية ، وتعد كتبه اليوم من أجل المراجع وأحسنها نسقاً وتوثيقاً كما أن ثقافته الواسعة

الجامعة بين القديم والحديث ، أتاحت لكل قارئ أن ينشد فيها متعة ونفعاً .
إن نواحي القول في هذا الفقيه العظيم عديدة لا تحصى ، فيها سيرته
وحياته ، وفيها علم وأدبه ومنطقه ورأيه ، وتعهده لكثير من شؤون التأليف والترجمة
والثقافة ، وبين هذه النواحي تبرز المرأة التي كان أحمد أمين نصيراً لها مؤيداً
لتعليمها ونهضتها ، فما وضع في طريقها الشوك ، ولا جردها من المواهب والكفايات
كما فعل كثير من أدبائنا المعاصرين الذين ذموا طبعها وتكويرها ، واتهموها بالخلو
من مزايا العقل والإبداع ، فكانوا ناقمين هادمين وما كانت النعمة والتهديم من
سجايأ أحمد أمين ، فقد علم المرأة وبنائها ، وكرمها في أمه وزوجته ، وفي بناته وتلميذاته ،
وقدرها قدرها في كل ذات رأي ونبوغ ، وكان يرجو أن يعم التعليم ويمتد إلى
نساء القرى لتحظى الريفية بنور العلم والحضارة .

لقد دخل الدكتور أحمد أمين بغيابه عن دنيانا هيكل الخالدين ، وأصبح في
ذمة التاريخ ، فإذا تفقدناه وجدناه بأثاره ومجهوده الباقي ، ولو أحصينا حسناته
في كفاحه وسعيه وما لم يعرف الجمهور من فضله لرجحت على ما قدم جمع من
العلماء والأدباء .

وبعد ، فلئن لم أكن من تلميذاته في الجامعة فقد أتيحت لي وقدر أن أكون
أكثر من هؤلاء معرفة به وتتبعاً لحاضراته وأحاديثه ، وما فاتني صفحة من كتبه
ومؤلفاته ، قرأتها معجبة مستقصية ، وكنت سعيدة برضى الفقيه عن أدبي وإهدائه
إلى بعض الكتب التي وضعها أو شارك في تحقيقها ، وطالما أنس بنا — قريني
وأنا — فتلقتنا ببشاشته وعلى سجيته ، نستعرض ما جدّ في الأدب ثم يحدثنا عن
آخر مقال كتبه أو كتاب بين يديه يتوخى في وضعه الجدة والاتقان .

واليوم أترحم عليه في هذه اللحظات الخاطفة وأحس روحه رفاقة حولي ، باسمه
كبسمته الهادئة في الدنيا ، فيارحمة الله أبسطى على الفقيه رياحين الخلود وتحيات
الطيبين الأبرار .